الفائزة بجائزة الملتقى للقصة القصيرة

مازن معروف

نُكات للمسلَّحين

قصص

الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مازن معروف

نُكات للمسلّحين

(قصص)

الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

المحتويات

نكات للمسلّحين ٩
ماتادور ٤٥
غراموفون ٥٣
نكتة ٦٣
سينما ٦٧
بسكويت ٧٧
الحمّال ٨٣
سيندروم أحلام الآخرين ٩١
أكواريوم ١٠٣
شخصية أخرى ١١٣
المنبّه ١١٧
علبة مربى ١٢١
برداية ١٢٧
خوان وآوسا ١٣١

Jokes for Gunmen

Mazen Maarouf

First Published in April 2015

Copyright ©**Al-Kawkab Press Services S.A.R.L.**

An Imprint of Riad El-Rayyes Books S.A.L.

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb — www.elrayyes-books.com

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-608-9

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, elctronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: نيسان (أبريل) ٢٠١٥

لوحة الغلاف للفنان ياسر صافي

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

نُكات للمسلّحين

١- نبتة فلفل

حلمتُ بأنّ لأبي عيناً زجاجية. وعندما أفقت، كان قلبي يخفق بشدة، كما لو أنّه قلب بقرة مذعورة، لكنني كنت أبتسم. كنت سعيداً، كما لو أنّ الأمر أخيراً تحقّقَ وأصبح لأبي عين زجاجية. عندما كنتُ صغيراً، أهداني أبي في عيد ميلادي شتلة فلفل. كانت هدية غريبة. لم أفهم كنهها في ذلك الوقت. كنّا نسمع إطلاق رصاص بين الفينة والأخرى. لكننا اعتدناهُ كما لو أنه زمامير سيارات عابرة. وبقدر ما لم أفهم ما الذي كان يحدث في الجوار، لم أفهم اختيار أبي لشتلة الفلفل ثم بقاءها معنا. لكن كان فيها برعمان صغيران من الفلفل. وحدستُ أنها تعبير عني وعن أخي التوأم. بقي

المسلحون لأشهُر يتقاتلون حول شارعنا. لموقعه الذي بين البحر وقلب المدينة. لكن أمي ظلت ترسلنا إلى المدرسة، أنا وأخي التوأم الذي كان أصمَّ، وفي الطريق يخاف ويجتمي بي.

لم أُحبَّ هدية أبي وقتها، ووجدتُها شاذة وكريهة. ولم أخبر عنها أيَّ تلميذ في المدرسة. لكني اعتنيتُ بها كما طلب هو مني. كان أبي مكوجياً يملك مصبغة، وعلمني كيف أمسح براعم الفلفل الصغيرة بقطنة، وكيف أضوِّئ فوقها بشمعة كي تكسب الفيتامين وتنمو. كان يفعل ذلك برقّة بالغة. يقول لي: «عليك الاعتناء بها حتى تبرعم. يجب أن تصبح شجرة الفلفل هذه صديقتَك». جعلني تصرّفُ أبي أفهم أنّ في كل برعم فلفل صغير هناك روحاً، وأنّ عليّ حمايتها مهما كلّف الأمر. كانت تلك مهمتي الصغيرة في الحرب. وأحياناً، أثناء اشتداد القتال واستعمال المسلحين للأسلحة الثقيلة كالمورتر والآر بي جي، كانت أمي وأخي المذعوران، ينبطحان أرضاً في الكوريدور بين الصالون وبين المطبخ والحمام، فيما أكون واقفاً قرب التلفزيون، النقطة الأكثر عرضةً للقنص في بيتنا، أحمل شمعة وأُضوِّئ فوق نبتة الفلفل القريبة، ظنّاً أن أرواحنا أنا وأخي وأبي وأمي موجودة أيضاً في قرون الفلفل الصغيرة، وأنني إذا فعلت ذلك، فإن أحداً منّا لن يتعرض للموت، خصوصاً أبي الذي لم يكن يعود إلى البيت قبل فترة المساء. وهكذا بدأ التقارب بيني وبين نبتة الفلفل، وأصبحت أكثر ودّاً تجاهها، رغم أنني في فترة من الفترات توقفت عن سقايتها الماء، بل كنتُ أبصق فيها. كنت أشرب الماء بدلاً من أن أسقيها إياه، لأنّ أمي كانت تقول إن الماء شحيح والناس سيموتون من العطش، فخفتُ وبدأتُ أشرب الماء، متخيلاً أنني إذا فعلت ذلك فإنني لن أعطش مستقبلاً. حتى إنني رأيت في سقاية نبتة

الفلفل من لعابي أمراً أكثر تقرباً إليها. حتى رأتني أمي في أحد الأيام وأخبرت أبي حين عاد من العمل.

كانت تلك المرة الاولى التي يجلدني أبي فيها بالحزام. كان غاضباً لدرجة لم أصدقها. وتساءلتُ: هل استحق البصق في نبتة الفلفل كل هذا الغضب؟ حتى أنني شاهدتُ أخي الأصمَّ يزمُّ عينيه ويرتعش كلما لمس الحزام بدني. وعندما ابتعد أبي، دنوتُ من نبتة الفلفل وأنا أجهش بالبكاء، محاولاً بعينين تغتسلان بالدموع، معرفةَ أيٍّ من قرون الفلفل هي روح أبي. لكن الأمر كان سهلاً. انتقيتُ أكبر قرون الفلفل. قطفتُه بلؤم ومعستُه بقدمي.

٢- قبوط

في المدرسة، كان التلاميذ يتبارزون بقصص ضرب آبائهم لهم. كانت تلك القصص تُصَوِّر بَأْسَ كل أب في بيته. فالقوة هي الموضوع الأكثر أهمية بالنسبة إلينا في الحرب. أبي لم يكن في رأس هرم هؤلاء الآباء طبعاً، لأنه لم يكن مبتكر العقاب الأقسى. لكني أخبرتهم متباهياً أنه جلدني بالقشاط. وحين سُئِلتُ عن سبب ذلك، كذبت. لم أقل «لأني بصقت في نبتة الفلفل». بل اخترعت قصة تبيّن أنني قمت بعمل جريء حقاً. وكأنني من صلب هكتور نفسه. قلت: «ابتلعتُ علبة حبوب الفاليوم المنوِّمة التي لأمي. فظلّ أبي يجلدني إلى أن تقيّأتُ كل الحبوب دفعة واحدة».

لكن بعد أيام على سرد قصتي الملحمية، جاء أحد أصدقائي التلاميذ إليّ وأخبرني أنه رأى أبي يتعرض للضرب في الشارع. قال لي: «كان لابساً حزاماً بنيّاً، لكنه لم يستعمله. أليس ذلك الحزام الذي جلدَك به؟». «أجل»، أومأت برأسي. لكون أبي يملك حزاماً بنياً واحداً. وقد وصفه لي الصديق الذي رأى كل ذلك كما لو أنه يحدث في صندوق فرجة غمس رأسه فيه. وحين عاد أبي من البيت، انتبهتُ إلى أن البقع التي في وجهه ليست ناتجة من حروق جلدية من بخار المصبغة. ولكي أتأكد من مدى الألم الذي كان

يشعر به، مددتُ إصبعي ولكزتُ أكبر البقع في وجهه. كان نائماً، لكنه انتفض من الألم وأشاح بوجهه عني دون أن يفتح عينيه، متظاهراً بأنه لا يزال نائماً.

أدركت في تلك اللحظة أن روح أبي خرجت نهائياً من نبتة الفلفل. وألقيتُ باللائمة على نفسي. فلولا قطفي لأكبر القرون ودوسه بقدمي، لما أصبح أبي ضعيفاً إلى هذه الدرجة. بل وجباناً أيضاً. وهذا أكثر ما آلمني.

لم يضربني أبي بعد ذلك. رغم محاولاتي المتكررة لاستفزازه. فقد بصقت أمامه أكثر من مرة في نبتة الفلفل. إلا أنه لم يحرك ساكناً مهماً بدا حجم البصقة أو مستوى صوتها.

لم يعد أبي يتكلم كثيراً. صار يقضي معظم الوقت في الحمّام، جالساً على حافة البانيو. كنت أتنقوزُ عليه من ثقب الباب، ويبدو لي مشتتاً، حتى أن اللعاب ينقّط من فمه دون أن يشعر. ومن خلف الباب أقول له هامساً وأنا أكزّ على أسناني كما لو أنني صديق يقدم له نصيحة وهما يصطادان السمك جالسين جنباً إلى جنب على حافة بانيو أمام البحر: «لا تبكِ. لا تبكِ...». وأبي لم يبك قط، ما دفعني إلى الاقتناع بأنه لا يزال يتحلى ببعض الثبات.

بعد فترة وجيزة، وبعيد عودته من العمل، وكان على ثيابه آثار دعسات، حمل التلفزيون ووضعه تحت الشجرة أمام البناية. لم يكن هناك عطب في التلفزيون. إلا أن أبي أراد أن يرى الجميع أن لا شأن له بالسياسة. وعلى أية حال، فأبي لم يتوقف يوماً عن الذهاب إلى العمل، ذلك أن مصبغته مكلفة

بغسل وكيّ ثياب نزلاء أحد الفنادق الكبيرة، وأكثرهم من الصحافيين الأجانب الذين جاؤوا من بلدان بعيدة ليكتبوا عن الحرب التي تدور في شارعنا وشوارع أخرى قريبة.

قصة تعرضه للضرب شاعت في المدرسة بين التلاميذ، وصرتُ بسببها أُعرَف بـ«القبوط»، على اعتبار أن أبي أيضاً قبوط. فالقبابيط تهرب دوماً ولا تهاجم. حاولت دفع هذه اللقب بعيداً دعني، بتلفيق قصص عن ضرب أبي لي بعنف. لم أتوانَ مثلاً في طريقي إلى المدرسة في الصباح الباكر، عن حرق ذراعي وبطني بالسجائر أو تمزيق مريولي وخرمشة عنقي وفرك عينيَّ. أدخل إحدى الزواريب المهجورة وأعرّض نفسي لجرعة من هذا التعذيب الصباحي الذاتي. كان الألم شديداً أحياناً. وحين أدخل المدرسة على هذه الحالة، يتجمع الأولاد حولي، فأقول فوراً وأنا أتكئ على البوابة مدعياً الإنهاك: «إنه أبي. ضربني هذا الصباح. إنه ليس قبوطاً كما تظنون». لكن المديرة سرعان ما استدعتني. وبعد أن تفحصتني قالت: «أشعر بأنك أنت من يفعل هذا لنفسه»، على اعتبار أن لا أب يخرمش ابنه الصغير في عنقه عند ضربه أو يحرقه بالسجائر ويرسله إلى المدرسة. ثم استدعت أمي التي أتت على عجل لتنهال عليّ بالضرب ونحن خارجان من المدرسة، على مرأى من التلاميذ الذين كانوا لا يزالون في الصفوف، وقد احتشدوا حول الشبابيك يتفرجون ويضحكون ساخرين مثل الفئران.

كانت تلك أول مرة أشعر فيها بالفشل. وغدوتُ مستعداً الآن للتخلي عن أي شيء، كمملكتي الصغيرة من سيارات الماتشبوكس من أجل أن يصبح أبي شخصاً يُخَوَّف. بل وأيضاً أن أبقر قحتي التي لطالما همستُ في شقّها عن

أحلامي. كنت أظن أن الهمس في الشق الذي تدخل منه النقود سيجعل القجة قادرة على تحقيق كل الأحلام. فأنت عندما تُسرّ لها بأحلامك، تقوم القجة بتعديل مجموع النقود، بزيادته طبعاً، ليصبح مناسباً لثمن هذه الأحلام. وأحلامي كانت أن أتمكن من شراء مسدس الـ ٦ ملم الفضي الذي يقتنيه ثلاثة أولاد على الأقل في البناية.

أما الآن، فأصبحت هذه الأحلام أن أتمكن من الحصول على عين زجاجية لأبي.

٣- بيّاع السحلب

صحيح أن فكرة العين الزجاجية لم تكن ابتكاري، بل ابتكار بيّاع السحلب في مدرستنا. لكنني عرفت منذ البداية أن عليّ إحداث تغيير في وجه أبي. التضحية بجزء في رأسه لإنقاذه كله. لكني لم أعرف كيف، ولا أي جزء يمكن أن أضحي به. كنت أتامله ليلاً، بينما هو نائم. أتفرس في ملامحه محاولاً أن أخمّن «ما هو الشيء الذي إذا أزلته من أبي أو شوهته على الأقل سيجعله يصبح مخيفاً؟». لكني لم أخلص إلى إجابة. فوجه أبي صغير أولاً، ثم إن نومه المتقطع لم يكن يساعدني، إذ إن أبي من النوع الذي يفتح عينيه فجأة وينظر إليك مفزوعاً ثم يسألك: «لماذا لم تنم بعد؟ هل أنت خائف؟». وماذا عساي أفعل في هذه الحالة؟ إنه السؤال نفسه الذي يدور في خلدي ما إن أجده فتح عينيه فجأة: «بابا، هل أنت خائف؟». لكنني لأجعل الجو بيننا متناسقاً كنت أقول: «لا بابا. نحن لسنا خائفَيْن. أليس كذلك؟».

«لا طبعاً»، يقول بصوت خافت متردد. ثم يمشي معي إلى غرفتي كي أعود إلى النوم. ويجلس على طرف سريرنا المشترك أنا وأخي. يظل جالساً، شارداً تماماً، بنفس الطريقة التي يجلس فيها على حافة البانيو. وما إن يبدأ اللعاب يسيل من فمه، أغمض عينيّ شادّاً على جفوني، متظاهراً بأنني غفوتُ. وبعد أن ينهض، يدخل المطبخ، يشرب بعض الماء ثم

يرجع إلى سريره بجانب أمي التي كان نومها دائماً ثقيلاً كما لو أنها برّاد.

بيّاع السحلب كان جاسوساً. يأتي إلى المدرسة مرتين في اليوم. أصلع بالكامل. قصير القامة ولا ذقن له. بشارب رفيع فقط. ويرتدي جزمة زبال. ما جعل أولاداً كثراً يتجنّبون شراء السحلب منه في المدرسة. لكنه على ما يبدو لم يأبه، وظل يأتي كالمعتاد دون أن يتكلم. لم نره يتكلم قط. كما لم نره يوماً منفعلاً. يصغي إلى طلبك ويتناول منك النقود ثم يردّ لك الباقي، إن توجب ذلك. كانت عينه اليمنى مفقوءة، لكنها لم تستوقف الأولاد. هؤلاء أثارت جزمة الزبال التي ينتعلها انتباههم أكثر. أكثر من عينه. ربما لأن الأجساد المشوهة كانت مشهداً اعتيادياً في الحرب، كدعايات الجبنة المستوردة مثلاً التي تشعرك بالألفة تجاهها، لكنك تعلم أنك لن تكون قريباً منها أبداً. وهكذا، من الطبيعي أن تشاهد في التلفزيون مثلاً جثة أو جثتين على الأقل كل يوم. أو أن يأتي أحد التلاميذ ويخبرك بالتفاصيل كيف أن قريباً له قضى في قذيفة. لكن أن تشاهد جثة لابسة جزمة زبال، فهذا محال. وبائع السحلب، كان في هيئته الرثّة أشبه بجثة. لكنّ أياً من المسلحين لم يتعرض له بالضرب. وحين سألته مرة وأنا أشتري منه كباية سحلب من وراء بوابة المدرسة الرئيسة: «هل ضربك المسلحون يوماً؟» لم يجب. فرفعت صوتي: «قل لي، المسلحون، المسلحون الذين يقفون في آخر الشارع، هل ضربوك يوماً؟»، فهزّ برأسه نفياً دون أن ينظر إليّ. عند رؤيتي إجابته شعرتُ بسعادة عظيمة. «شكراً»، قلت له، مفسّراً الأمر على أن له علاقة حتماً بعينه المفقوءة.

٤- كرتونة

توقفتُ بعد فترة عن الذهاب إلى المدرسة. فقد صرتُ أشبه بمبولة عامة. الكل يضع خراء نكاته فيَّ. خصوصاً بعد صفع أمي لي أمام التلاميذ. لم أشعر بالذنب، ولم أفكر بعواقب تغيُّبي عن المدرسة، بل بررت الأمر لنفسي بأني بحاجة إلى استراحة. وإلى التفكير في ما يمكن فعله لمساعدة أبي. كان عليّ توطيد علاقتي مع المسلحين بأية طريقة. أن أصبح مقرّباً منهم. ولكي أفعل ذلك، عليّ أن أثير انتباههم. أن أقوم بضربة. بوووووم. ما يدفعهم إلى التحقيق معي. كما لو أنني أعمل لحساب فرقة منافسة لهم. في اليوم التالي فقط اغتنمت الفرصة. سرقت كرتونة تركها واحد منهم على حافة قريبة من المبنى الذي يحتلونه. كان في الكرتونة كيس عدس وبعض علب الدواء والروشيتات الطبية ومرآة سيارة بيجو وقطعة بلاستيكية لم أفهم الغرض منها. علب الدواء كانت لوالدة أحد المسلحين العديمي الشأن. حملت الكرتونة وركضتُ بها. لحق بي مسلحان. لم يطلقا النار عليّ، إذ تمكنا من الإحاطة بي عند سيارة مركونة حتى قبل أن يضطرا إلى التفكير بإطلاق النار. وما لبثت أن وجدت نفسي في غرفة في الطابق الثاني من مبنى المسلحين. عندما بدأ «التحقيق» (أحب أن أسميه كذلك)، طلبتُ كرسياً لأجلس عليه. فهبطتْ يدٌ بوزن حمامة

أو حمامة ونصف على رقبتي. فكححتُ، كما لو أنني أطهِّر حلقي، كي لا أذرف دمعةً. فأنا لم أوصِل نفسي إلى هذا المكان من أجل أن أتعرض للضرب. كما أن صفع شخص على رقبته، على الأقل في المدرسة، يعني أن الشخص عديم الأهمية. لو كان مهماً فستصفعه على وجهه أو تلكمه في فكه أو بطنه. كانت تلك إهانة. لكنني انتصبتُ ككبّاية، محاولاً إظهار قدرة تحمّلي عند الشدائد. كنت أريد أن أثير إعجابهم، غير أن زعيم المسلحين لم يسألني سوى: «هل المدارس مقفلة اليوم؟»، وهو يتفرس في مريولي وشنطتي، وقبل أن أجاوب كان السؤال قد أصبح متداولاً الآن بين المسلحين أنفسهم. فإقفال المدارس فجأة يعني أنّ هناك تطوراً أمنياً، وأنّ عليهم الاستعداد. وهم لم يسمعوا بهذا في الراديو. كما أنّ الكرتونة التي سرقتها لم تكن تخص سوى مسلح بائس مكلّف تحضير القهوة والشاي والسندويشات لهم. كانت أمه مريضة جداً، وكان عليه الذهاب إلى البيت لتحضير شوربة عدس لها وإعطائها الدواء. لكن التحقيق معي أجبره على البقاء. وهذا ما أزعجه. كان هو من صفعني على رقبتي.

طُرِدتُ من المبنى. كنت مثبط العزيمة. فأنا لم أُسأَل حتى عن سبب سرقتي للكرتونة. لكنني لم أبتعد. لم أذهب إلى البيت أو أعد إلى المدرسة، بل بقيت. وقفت قرب الحاجز أتفرج، مع حرصي طبعاً على ألّا أتدخل إذا ما قرر المسلحون ضرب أحد المارة، حتى لو كان ذلك الشخص أبي نفسه. فأنا هنا لأعقد صفقة معهم. أن أبيعهم أخي التوأم. في المدرسة سمعت شوفير الأوتوكار يتحدث مع معلمة العلوم عن تجارة بعض المسلحين بالأعضاء البشرية. الأطفال تحديداً. المشكلة بالنسبة إليّ كانت في كيفية معرفة المسلحين الذين يتاجرون بالأعضاء من أولئك الذين لا يتاجرون. فشوفير

الأوتوكار لم يذكر هذا للمعلمة. وعندما اقتربت منه وسألته قال ساخراً ربما لينال إعجاب المعلمة الجميلة: «كي تعرف، اسألهم إن كانوا من هواة الأعضاء!». لذلك كان لا بد لي من سؤالهم عن الأمر.

٥- الصفقة

كنت أمنّي النفس بأن يكون المسلحون من هواة الأعضاء. فقد وجدتُ في أخي الأصمّ بضاعة رابحة. حسناً، ليست بضاعة باب أول. أعترف. فأخي كون أذنيه لا تعملان، يعني أن جزءاً منه غير موجود. وهذا صحيح لأن أخي على ما يبدو استعمل أذنيه كثيراً أثناء إصابته بالحمى، حتى ما عاد عنده سمع. كما أن هناك اثنين منه. أنا وهو. ما سيخفّض حتماً من سعره. لكنّ سعره زائداً ما في القحة سيمكنني من شراء عين زجاجية لأبي. كما أن هناك سبباً آخر سيدفع المسلحين حتماً إلى شرائه. أخي له قلبان.

أجل. هذا ما كانت تقوله أمي. وهي لطالما ردّدت أمامي، لجعلي لا أستحي بأخي، أن الأطفال الذين لديهم عاهة، كالصمم أو الخرس أو العمى وغيرها، لديهم قلبٌ ثانٍ. فالله يأخذ منهم حاسةً ما، لكنه يعطيهم بدلاً منها قلباً في الجهة اليمنى من صدورهم. لأن المكان ضيّق في الجهة اليسرى. وأخي لا يسمع. عندما كنا طفلين صغيرين أصبنا معاً، كأي توأم، بالحمّى. ما حدث هو أننا عندما خرجنا من الحمّى، اكتشفتُ أن الحمّى أخذت سمعه ووضعته فيّ. لكنني لم أقل له هذا. فقد تضاعفت قدرة سماعي بالفعل. أما هو، فلم يعد يسمع بالمرة، ولم يعد يكلمني كثيراً، بل يبتسم فقط. هذا لأن له قلبين. وهو ما كنت أراهن عليه أمام المسلحين. فقلت كل شيء دفعة

واحدة. لكني تركت مسألة القلبين حتى النهاية. للصدم. كقذيفة تصيب أوتوكاراً مليئاً بالأطفال المعوَّقين.

اقتربت من المسلح وسألته: «هل أنتم من هواة الاعضاء؟»، ومخافة أن لا يقول: «نعم»، أو أن يطردني، أضفتُ بسرعة: «لديّ أخ، وهو يريد أن يبيع نفسه. أنا وأخي واحد. هو من سيبيعكم نفسه، لكني أنا من سيقبض الثمن، ولا أريد غشكم. إنه لا يسمع، كما أن هناك اثنين منه: أنا وهو. لكن أخي لديه قلبان».

نظر إليّ المسلح وقال: «قلبان؟ وتريدنا أن نتاجر بالاعضاء؟ وماذا تعرف أيها الخرية عن الأعضاء البشرية؟».

«كل شيء»، قلت كاذباً.

«كل شيء؟ دلّني إذن، أين أيرك؟».

«إنه داخل الجسم هنا»، قلت واضعاً يدي على خاصرتي، يسار السرّة.

انفجر المسلَّح بالضحك. في الحقيقة، لطالما شعرت بأنّ أير الإنسان له علاقة بالكِلية، لكن لم أعرف أين يقع بالتحديد. لم يقل لي أحد إن الأير هو البُرْبُر (هكذا يسميه أبي) الذي أبوِّل من خلاله.

وبعد أن هدأ ورأى المأزق الذي أنا فيه، فقد كان وجهي أحمر كالفليفلة، قال: «طبعاً، اذهب وهات أخاك!».

لم أصدق ما سمعته، ولم يخطر ببالي أنّ المسلَّح يسخر مني. ورحت طوال

الطريق أفكر في ما لو تمت الصفقة فسأكون قد انتقمتُ أيضاً لأبي من المسلحين، الذين يتعرضون له بالضرب. بالمال الذي آخذه منهم أركّب لأبي عيناً زجاجية تخيفهم جميعاً مرة واحدة. انتظرت حتى موعد خروج التلاميذ من المدرسة، لأعود إلى البيت. كنت في غاية السعادة. وعندما دخلت، وجدت أخي وأمي كالعادة. ابتسم الأصمّ لي. فأخذته إلى الحمام، وغسلتُ وجهه وطلبت منه أن يفتح فمه لأشيّك على أسنانه، ثم أوساخ أذنيه. سمعت أمي تدعو الله أن يحفظني. أما أخي فلم يفهم شيئاً. أشرت له بإيماءة «إننا ذاهبان» ثم «لن نخبر ماما». فابتسم. بتلك الطريقة التي تجعلك تفكر حقاً أنّ له قلبين.

اصطحبتُ توأمي الأصمّ إلى المسلحين. لكونه أصمّ لا تدعه أمي يخرج من البيت، ولا حتى أن يلعب أمام البناية. فكونه أصمّ، ليس بمقدوره سماع صوت الاشتباكات إذا ما اندلعت فجأة. ويمكن أن يكون هدفاً سهلاً لقناص. قلت لها: «أنا ذاهب لأشتري له من الدكان». كانت أمي سعيدة. فأنا لم أعامل أخي بهذه الطريقة من قبل. حين وصلنا إلى نقطة المسلحين، قلت: «هذا هو!»، وأنا أدفعه بيدي قليلاً إلى الأمام. «شبهي تماماً، لكنه لا يسمع، وله قلبان كما قلت لكم». لكن أخي شعر بأنّ هناك خطباً ما. رجع إلى الوراء وتمسّك بقميصي مستنجداً بي. شعرتُ بقبضته. كانت أصابعه كعزقات مشدودة. حدستُ أنه خائف. ثبّتَ قدميه في الأرض كجَدي صغير ونظر إليّ. فقلت له بالإشارة: «هذا من أجل بابا».

المسلَّح قال: «أنت هنا إذن لتبيع أخاك؟».

«أجل، سأبيعه لغيركم إن لم نتفق»، جاوبت بثقة.

«يا أنك جادٌّ إلى هذه الدرجة، تعال نتفق فوق»، قال وأشار لأخي أن ينتظر. عندما رآني أخي أدخل المبنى مع المسلح انفجر بالبكاء، لكني طمأنتُه من بعيد.

٦- أخي الأصمّ

كانت تلك المرة الوحيدة التي تعرضت فيها للضرب على أيدي المسلَّحين. صحيح أنهم ليسوا المسلَّحين أنفسهم الذين يخلّفون آثار دعساتهم على قميص أبي، لكني اختبرتُ لأول مرة أحاسيس الرجال عندما يسقطون أرضاً. في الطريق إلى البيت، كان أخي حزيناً من أجلي. وفي منتصف الطريق أوقفني ليلمس وجنتيَّ كما فعلت أنا مع أبي - كانت رقبتي وخدّاي قد اكتسبت الآن لوناً أزرق - وما إن فعل ذلك حتى سقطتُ أرضاً على الرصيف متظاهراً بأنني نائم وأدرت وجهي إلى الناحية الأخرى. حتى أنني تركتُه يساعدني على النهوض. وعندما عدتُ إلى البيت، جزعت أمي ما إن رأتني، وأخذت تصرخ، وسألتني عمّا حدث. لكني لم أكن مركزاً تماماً، وبدلاً من أن أدخل الحمام وأجلس على حافة البانيو وأذرف اللعاب، وقفتُ أمام نبتة الفلفل ورحتُ أتفحصها. كان أحد قرون الفلفل فيها ذابلاً ومنكمشاً على نفسه. أحبطني المشهد جداً. وقلت في نفسي لا بدّ أن قرن الفلف ذاك روحي الصغيرة التي تعرضت للإذلال. حتى إنني في اليوم التالي لم أخرج من البيت مدعياً الذهاب إلى المدرسة، بل أمضيتُ النهار أحاول رشّ الماء على قرن الفلفل الذابل والنفخ عليه لإنعاشه. لكن محاولاتي لم تنجح. ففي منتصف النهار، انفصل قرن الفلفل الصغير عن

النبتة وسقط في أرضية الزريعة. نقزتُ وأخذ قلبي يضرب بشدة كما لو أنه دعسات أقدام. إلا أنني لم أعرف أن القرن الذابل لم يكن يخصّ روحي، بل روح أخي. فبعد ظهر ذلك اليوم، لم يعد أوتوكار أخي من المدرسة. وعرفنا لاحقاً أن قذيفة أصابته. تفحّم أخي وكل الأطفال الآخرون فيه، والتصقت أجسادهم ببعضها. فدُفنوا معاً في جل زراعي صغير وبعيد، قرب المدرسة.

كان أخي يذهب إلى مدرسة مخصَّصة للصُّمّ والبُكم والعميان كذلك. وكان أوتوكاره فرجة لجميع الأولاد في الشارع. لأن روادَّه بالنسبة إليهم غريبو الأطوار. كانت تفوح من الأوتوكار رائحة عجين وموز وحليب، وكنت مكلَّفاً الانتظار مع أخي كل صباح. كنت أكره ذلك. فما إن يدخل أخي الأوتوكار، حتى يبدأ بعض الأولاد فيه بالإشارة إليّ مستغربين وضاحكين، كوني نسخة مطابقة له. أما أخي فأحبَّ ذلك. كان فخوراً بهذا الشبه الكبير بيننا. أما أنا فكنت أدير وجهي جانباً كي لا ألتقي بعينيه بعد أن يستقل الأوتوكار. فهو يلتصق بزجاج النافذة ويلوِّح لي بيده راسماً ابتسامة عريضة وبلهاء أشعر بأنها ستنفصل عن وجهه وتصبح ضفدعاً برياً دبقاً يقفز على أنفي.

٧- نُكات للمسلَّحين

بعد موت أخي، لم تعد أمي تتناول الطعام. وصارت تدخّن كثيراً وتتشاجر جداً مع أبي الذي ظلّ يذهب إلى عمله في المصبغة ويتعرض كالعادة لضرب المسلَّحين. وعندما يعود إلى البيت يدخل الحمام، يجلس على حافة البانيو ويسيل لعاب من فمه، لعاب أكثر من السابق، لكنه لم يبك أبداً. فيما أتفرج عليه وأنا أكزّ على أسناني. الواقع أنني لم أتأثر كثيراً لخسارة أخي. ففكرة أن هناك من أخي اثنين، وأنّ واحداً منهما فقط رحل، منعتني من أن أشعر بهول الخسارة. كانت بالنسبة إليّ نصف خسارة، أو حتى ربع خسارة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن سمعَ أخي بقي معي. فظللتُ مصمماً على المضي قدماً في مشروعي، شراء عين زجاجية لأبي. لكني عدت أذهب إلى المدرسة. فموت أخي أنقذني، إذ أعاد لي اعتباري بين التلاميذ. فقد توقفوا عن الاستهزاء بي. ذلك أنّ من المعيب أن يضحكوا على زميل لهم فَقَدَ أخاه الأصمّ في قذيفة.

لكنّ الأمور لم تتحسن بالطريقة عينها بالنسبة إلى أبي. فخسارته لطفله جعلتْ المسلَّحين ينتبهون إلى أنه ليس ضعيفاً وحسب، بل حزينٌ كذلك. الآن، بعد إشباعه ضرباً، وبدلاً من القول له كالعادة: «إننا هنا لحمايتكم»،

صاروا يطلبون منه أن يروي لهم نكتة. «هيا ارو لنا نكتة قبل أن تذهب»، يقولون. «خذ وقتك». ويكون على أبي أن يفكر بنكتة. طبعاً، أمام حشد من المسلَّحين، عليك أن تكون قصّاصاً جيداً كي تنال حريتك. أن تكون قصتك مقنعة، ممتعة، قصيرة جداً ومثيرة للضحك. ليس كهذه القصة مثلاً.

أصبحنا نقضي وقتاً أكثر أنا وأبي. ورغم أنها كانت فترة حداد على أخي الأصمّ، إلا أنه كان علينا أنا وأبي أن نؤلف معاً النُّكات. نكات للأسبوع. نكتة لكل يوم. للمسلَّحين فقط. وعلى كل نكتة أن تكون حادة. وأحياناً بذيئة. أبي قال: «لا بأس. يمكنك أن تتلفظ بعبارات بذيئة. المهم هو النكتة». لم يكن ممكناً لأمي أن تشاركنا هذه الجلسات المسائية. فكونها أمَّ الصبي الفقيد، كانت في غاية الضياع، شاحبة كلياً وصامتة، ونحيلة. كما لو أن موت أخي أفرغ أمي من محتوياتها.

عليّ الاعتراف بأنّ النُّكات لم تكن جيدة. لم تُضحكني أنا على الأقل. فعلى الرغم من أنني شاركت بتركيبها، إلا أنني لم أكن أفهم مغزى معظمها. أما أبي، فوجدها مناسبة. كان يبتسم بارتياح كلما انتهينا من تأليف نكتة. كما لو أنه شطب للتو يوماً سيئاً من الروزنامة. كنا أحياناً نقضي الليل بكامله في تأليف قصة مضحكة. وأحياناً، نضطر إلى الاستيقاظ في الصباح الباكر، نجلس إلى طاولة المطبخ ونتهامس محاولين وضع النهاية المناسبة لنكتة لم تنتهِ بعد. وأحياناً أستعين بالتلاميذ الأكبر سناً. أطلب منهم أن يخبروني نكتة تضحِّك، تضحِّك جداً، وأولئك كانوا يلبون طلبي على الفور، متعاطفين، ظناً أنني بحاجة ماسة إلى الفرح بسبب فقداني أخي التوأم. فيسردون لي آخر النكات التي سمعوها، والتي أمررها بدوري إلى أبي في المساء. ثم نبدأ

بتعديلها لكي تغدو جديدة تماماً وغير مسموعة من قبل. لكن، كلما انتهينا من وضع نكتة، كنت ألاحظ أن أبي يبدو أكبر سناً.

قال أبي إنه كان عليه أن يسرد النكتة أحياناً أثناء تشغيل المسلَّحين للراديو. وعندما يأتي ملحق إخباري، يقولون له «شششش»، فيصمت أبي، وينتظر حتى انتهاء الملحق، ليعيد النكتة من بدايتها. وما إن يخطع في تفصيل حتى يتلقى صفعة على وجهه مصحوبة بصوت يقول له: «أنت لم تسرد هذا حرفياً في المرة الأولى». وبعد انتهاء النكتة يذكّرونه بأنهم بمثابة أخوة له، وإن احتاج شيئاً فبإمكانه المجيء إليهم. فهم موجودون لحمايتنا ومساعدتنا. لكنني كنت أعرف أنهم يكذبون. وتساءلت: «لو كانوا يريدون حمايته فعلاً، فلماذا لم يفقأوا عينه إلى الآن؟». لا بد أنهم أدركوا أن أبي لو اكتسب عيناً زجاجية، فسوف يخيفهم.

٨- أفراس النهر

كان عليّ التصرف. القيام بخطوة ما. إذ بدا واضحاً أنّ أبي لن يصير له عين مفقوءة إطلاقاً إذا ما بقي على هذه الحال. فعليّ تعزيز إمكاناته، بشكل يستفز المسلحين، فيفقأون إحدى عينيه، قبل أن يندموا على ذلك بالطبع. كانت خطتي الآن، أنّه لا بد من توظيف حارس شخصي لأبي. مرافق.

لم أكن قد تصرَّفتُ بقجتي بعد. كانت ممتلئة إلى الآخِر. ولم يعد ممكناً حتى إدخار حبة سمسم فيها. في الواقع، لم تكن قجتي وحدي، بل قجتي أنا وأخي معاً. لكن، بما أن أبي وأمي لا يزالان يعتبرانه فرداً من العائلة، رغم أنه ميت، فباستطاعتي بكل راحة ضمير، التصرف بحصته.

تعوّدنا أنا وأخي أن ندّخر في قجتنا المشتركة الأوراق النقدية من الفئة الكبيرة. بالتساوي. لكنني كنت أغشّ أحياناً. أما أخي، فلا. لم يكن لديه فرصة، إذ كنت أراقبه جيداً. وأحياناً أفتّش بنطاله وهو نائم. وإذا عثرت على ورقة نقدية كبيرة، أحتفظ بها لي. كان أخي يحصل أحياناً على مصروف زيادة لكونه أصمّ. كما لو أنه بذلك المال سيستطيع شراء حاسة سمع جديدة. وهو لكي لا يجرح مشاعري، يخفيها عني. لكني أعود وأجدها. وأخي حين لا يجدها لا يسألني ولا يشي بي لأبي أو أمي، بل يبتسم فقط

ويشير لي بأصابعه قائلاً: «أنا أعرف». كنتُ قد نسيت أمر القحة منذ موته، لكنني الآن قررت استثمارها. طبعاً لمصلحة العائلة. كنتُ الآن أذهب إلى المدرسة بانتظام. للدراسة والمجيء بنُكات لأبي. فكرتُ في أنّ بإمكاني تأجيل مسألة عينه الزجاجية لفترة قصيرة.

قرب المدرسة، كانت تقف دوماً مجموعة من الشباب. خمسة أو ستة. كنا نلقبهم «موكب أفراس النهر». كانوا أخوة. ولجميعهم الطول الفارع نفسه تقريباً والوزن الضخم أيضاً. وهم دوماً متأنقون. مستحمون. شعورهم مقصوصة. وثيابهم نظيفة. وتتدلى من رقابهم سلسلة ذهبية. كانوا معروفين بهدوئهم، لكن بشراستهم أيضاً، ويعملون بالساعة. سمعت من التلاميذ أنهم ينفذون مهمات صعبة، كإنقاذ مسلّحين مثلاً من بعض المواقف الصعبة. إنهم مرة أنقذوا قناصاً، بعد أن أحاط بالبناية التي كان يتمركز على سطحها مسلحون معادون له. «أفراس النهر» هم إذن من أريد الاتفاق معهم. ليس جميعهم. ففرس نهر واحد فقط أكثر من كافٍ لحراسة أبي.

حملتُ القحة إلى المدرسة. وبعد انتهاء الدوام، ورحيل الجميع، مشيتُ نحو الموكب مُخرِجاً من شنطتي القحة البلاستيكية الخضراء. لم أنظر إلى أيٍّ من «أفراس النهر» وأنا أتقدم منهم، بل تابعتُ المسير إلى أن وجدتُ نفسي أقف أمامهم. عملياً، أمام واحد منهم. كان عليّ التكلم بسرعة ولفظ كل شيء دفعة واحدة. فقلت دون أن أرفع رأسي لأنظر إلى وجه الشخص الذي أكلّمه. «هل تريد وظيفة؟ أحتاج إلى حارس شخصي. لساعة في اليوم فقط. نصف ساعة صباحاً، ونصف ساعة مساءً. والمعاش في الداخل. ما رأيك؟». قلتُ دافعاً بقحتي نحو بطنه.

«حارس شخصي؟ لمن؟ لك؟».

«لا. لأبي!».

«وماذا يعمل والدك؟».

«لديه مصبغة».

«وكم في القحة؟».

«لا أعرف. افتح القحة في بيتكم، وأخبرني غداً كم ساعة يمكنك أن تعمل لقاء المال الذي داخلها»، قلتُ. كان قلبي يخفق بشدة، فكل شيء على ما يبدو يسير على ما يرام.

في اليوم التالي، دخل موكب «أفراس النهر» المدرسة. كان ذلك أثناء حصة الرياضيات. طرق باب الصف ودخل طالباً مني الخروج للتحدث معه. المعلمة طبعاً لم تكن تستطيع فعل شيء، ولا المديرة حتى. بل إن طلب فرس النهر الحديث إليّ شخصياً أكسبني احتراماً مضاعفاً الآن بين التلاميذ والأساتذة على السواء. خارج الصف قال لي الرجل: «لقاء المال الذي في القحة، بإمكاني العمل سبع ساعات. هذا يعني أسبوعاً».

«سبع ساعات؟ فقط؟»، قلت بثقة.

«أجل. قبولك أو رفضك الآن لن يشكل فرقاً، إذ نحن نقبض الأجر سلفاً سواءٌ أتمّ العمل أم لا».

«أسبوع جيد! جيد جداً. سترافق أبي نصف ساعة في الصباح عند ذهابه

إلى العمل ونصف ساعة في المساء عند عودته إلى البيت. ليس أن ترافقه حرفياً. بل أن تمشي وراءه فقط. خلّ المسافة بينكما قصيرة، ودع الآخرين يدركون أنك حارسه الشخصي. لكن لا تكلمه». كنت أتحدث الآن كرجل عصابات.

أجاب الرجل بنبرة حادة كما لو أنه أُهين: «هل تدرك أنك تتعامل مع محترف؟!».

كنا في يوم الأربعاء، واتفقنا على أن يبدأ الرجل عمله الاثنين القادم، أي بعد خمسة أيام، لارتباطه ببعض العمليات.

٩- أبي مختطَفاً

كان فرس النهر محترفاً بالفعل. صاحب كلمة. كأيِّ رجل عصابات طموح. ففي صباح الاثنين المتفق عليه، وجد أبي رجلاً ينتظره عند مدخل البناية. الرجل مشى وراء أبي من دون أن ينبس بكلمة. تماماً كما يتصرف الحارس الشخصي. كان فرس النهر ذاك مزوداً بأكثر من مسدس وأكثر من جعبة. وأخذ على عاتقه المهمة التي كلفتُه بها، رغم صغر سني، بكل أمانة. رأيت ذلك بنفسي. كنت أتلصص من خلف البردايه. المسافة بينه وبين أبي كانت ضئيلة جداً. أبي المرعوب، لم يجرؤ على التحدُّث مع ذلك الرجل الضخم والغريب. بل إنه من فرط فزعه، توقف في منتصف الطريق وتقيّأ على الرصيف طعام الفطور. وفرس النهر، المحترف، وقف هو الآخر ينتظر انتهاء أبي من تقيؤه، متلفّتاً في كل الاتجاهات، مراقباً الأرصفة والبنايات والطريق.

عندما وصل إلى المصبغة، توارى الحارس الشخصي عن الأنظار. لكن أبي ظل طوال النهار مرتاباً، متوتراً ويعاني من أوجاع في المعدة. وحين همّ بإقفال المصبغة في التاسعة إلا ربعاً مساءً، موعد انتهاء نشرات الأخبار المتلفزة، ظهر الكابوس مرة أخرى، وظل ماشياً خلف أبي حتى مدخل البناية. المسلحون لم يتعرضوا لأبي في ذلك اليوم. ربما لأنهم لم يريدوا متاعب مع موكب أفراس النهر. في اليوم التالي لم يخرج أبي من البيت، بل

ظلّ في غرفته. حتى أنه لم ينظر من الشباك إلا عند الظهيرة. لكن فرس النهر لم يكن موجوداً، الأمر الذي طمأنه.

لكن الأمر تكرر في اليوم الثالث، حتى أن أبي في منتصف الطريق إلى المصبغة، لم يعد بوسعه متابعة المسير، فتوقف وأشار إلى سيارة أجرة. لكنه وجد فرس النهر يجلس إلى جانبه في المقعد الخلفي، فقال له أبي بصوت مرتعش: «هل فعلتُ شيئاً سيئاً؟»، فأجابه الحارس الشخصي: «لا علم لي. لقد كُلِّفتُ مرافقتَك».

«كُلّفتَ؟ ومن كلّفك؟».

«ألديك ابن صغير، في الصف الأول متوسط؟».

«أجل».

«هو من كلفني».

في ذلك اليوم لم يعد أبي إلى البيت. عندما وصل الحارس الشخصي فرس النهر إلى المصبغة قُبَيل التاسعة إلا ربعاً مساءً وجدها مقفلة. بقيت أمي تنتظره طوال الليل، لكن أبي لم يظهر له أثر. وكان عليّ البقاء مستيقظاً إلى جانب أمي المسكينة. كانت عيني تؤلمني بشدة. وأخذت حبة دواء. لكن فكرة واحدة كانت تنطّ كالسنجاب في رأسي: «هل يمكن أن يكون أبي قد خُطِفَ؟». في الصباح الباكر، سمعنا طرقاً على الباب. ظننا أنه أبي. لكن أمي عندما فتحت الباب وجدت فرس النهر واقفاً أمامها. كان منزعجاً من أن رجلاً عادياً كأبي قد تمكن من الإفلات منه. وقد طلب التحدث إليّ.

«اسمع أيها الطفل، سأعتبر هذا إخلالاً بالاتفاق. قل هذا لوالدك!» قال لي، وانصرف.

كنت أعرف أن أفراس النهر بإمكانهم إرجاع أبي إذا ما طلبتُ منهم ذلك. الأمر طبعاً سيكلّف الكثير من المال. لكن أمي كانت مستعدة لبذل ثمن المصبغة كاملاً من أجل إرجاعه. لكني فضّلتُ أن يبقى أبي مختفياً فترة، إذ لطالما أردت لأبي أن يكتسب سمعة مدوية في الحرب. وها هي الفرصة المواتية. ما دام أبي متوارياً عن الأنظار، فهو حكماً مختطف. هذا ما سأُروِّج له. ما سيعطي انطباعاً بأن لأبي ثقلاً بنظر خاطفيه. بخلاف ما راحت أمي تردد على مسامع الجيران بأن أبي بريء، وبأنه لم يشتر يوماً جريدة حتى، ولم يكن له رأي في أيّ شيء مما يحدث. بل أقسمت مراراً إنه كان يتعرض بشكل مستمر لضرب المسلحين، وأنه كان راضياً تماماً.

كانت أمي تريد عودة أبي بأيِّ ثمن، أما أنا فلم أفصح لها عن إمكانية إعادته متى أردنا، باستخدام موكب أفراس النهر. في المدرسة، لاحظت أنّ التلاميذ قد أصبحوا أكثر تعاطفاً معي. فقد أصبحت الولد الذي فقد أخاه الأصمّ وخُطِفَ والده. وربما كان لهذا التعاطف سبب آخر أيضاً، إلا أنني كنت أشعر بارتياح. أبتسم طوال الوقت وأتباهى. فأبي قد أضحى أخيراً شخصية مدرجة في سجلات الحرب كمخطوف. حتى أن صورته نُشِرَتْ في الجريدة، ما أغاظ المسلحين الذين شعروا بالغيرة، لأن صورتهم لم تنشر قطّ في أي جريدة. ثم ذُكِرَ اسمه في التلفزيون في لوائح المفقودين لذلك الشهر. أما أنا، فرحتُ في المدرسة أكتب في مواضيع الإنشاء حول تخطيطاته الحربية في البيت، وتوجيهاته لرجال مسلحين

كانوا يترددون إلى بيتنا، وصداقته العميقة والسرية بموكب أفراس النهر.

لكننا بعد شهرين على اختفائه، تلقينا إخطاراً قضائياً عبر محام، يُعلِن أن أبي كتبَ المصبغة وكل ما فيها من آلات وأدوات وعلاّقات باسمي. من المستحيل طبعاً لمخطوف أن يوظِّف، من مكان خطفه، محامياً، فأدركتُ أنا وأمي أنّ أبي لا يزال على قيد الحياة، وأنه بخير، ولم يُخطَف ولم يحدث له أي مكروه، بل إنه قرر ترك البيت بمحض إرادته. وقع الخبر كالصاعقة عليّ، فيما انقلب مزاج أمي إلى الأحسن. وفي اليوم التالي، لم أذهب إلى المدرسة، كنت خجلاً للغاية، لكون أبي ليس مخطوفاً، ولم أعد إليها مطلقاً. وبعد وقت قصير عزمت على أن أتفرغ لغسل ثياب الناس وكيِّها في المصبغة الصغيرة.

١٠- مكالمة

لم أرَ أبي مجدداً. إلا أنه يتصل بي أحياناً على الهاتف، هاتف المصبغة مرتين في الأسبوع. يطمئن عني وعن أمي وأحوال الشغل، فأجاوبه بصورة معكوسة: «الشغل بخير يا أبي. أفكر أن أفتح فرعاً آخر، ونحن نفتقدك بابا. ألن تأتي لزيارتنا؟». أتوسله أن يقول لي أين يقطن. لكنه يرفض، كما في كل مرة. إنه الآن متزوج، ولديه طفلان توأمان. يخبرني عنهما، وكيف أنهما يشبهاننا، أنا وأخي عندما كنا في مثل سنّهما. رغم مرور خمس عشرة سنة، لا يزال أبي يشعر بالعار. يقول لي إنه خجل من نفسه. «كم كنت جباناً!»، يقول. فأعلّق: «أوكي بابا. ليس باستطاعة جميع الناس في الحرب أن يكونوا شجعاناً». أنظرُ في المرآة وأنا أكلمه على الهاتف. دائماً. لا أخبره أنني وددتُ دوماً أن يكون له عين زجاجية، لأن ذلك سيكون مؤذياً لكلينا. ثم يسألني السؤال الدائم. السؤال الذي لا ينساه في أي مكالمة: «كيف حال عينك؟ عينك الزجاجية؟». فأجاوبه: «بخير بابا. لقد تكيَّفتْ تماماً مع وجهي. حتى أنني أرمش بشكل طبيعي. عليك أن تراها». «جيد أن أسمع هذا. لقد كان يوماً مشؤوماً ذلك الأربعاء. هل تذكر؟ لم يكن عليك البقاء في المدرسة بعد انتهاء الدوام».

«أجل بابا. أذكر ذلك اليوم جيداً. لقد كان يوماً مشؤوماً بالفعل. حتى أنني مدين لك باعتذار».

«اعتذار؟ لا تكن سخيفاً. أنا من يجب أن يعتذر لك ولأمك».

كنتُ قد بقيت في المدرسة بعد انتهاء الدوام، عازماً على الاتفاق مع فرس النهر على فكرة جديدة لا يتطلب تنفيذها سوى دقائق فقط. فقد خطر لي بعد زيارة الموكب لصفّنا أنه بدلاً من توظيف واحد منهم كحارس شخصي، أطلب منهم أن يفقأوا عين أبي. وعندما قرع جرس المدرسة معلناً انتهاء الدوام، لم أجد أفراس النهر في الجوار، وكان عليّ انتظارهم في المدرسة. كان بعض التلاميذ لا يزالون في الملعب. كانوا يلعبون الـ«پوول» بطابة تنس. في الـ«پوول» يتقاذف ولدان طابةً ما محاولَيْن إصابة مجموعة من الأولاد تقف في منتصف المسافة بينهما. وأنا انضممتُ إليهم. لكنني لم أكن مركّزاً بالكامل. كنت ألعب وأفكر في أفراس النهر والخطة الجديدة. وبعد وقت قصير، تلقيت ضربةً بالطابة على عيني. فقدتُ الوعي مباشرة. وعندما أفقت، كنتُ في المستشفى. فتحت عينيَ وكان أبي وأمي واقفين قرب سريري. كانت عيني اليسرى مضمدة بالكامل ورأسي يؤلمني بشدة وشعرت بدوخة خفيفة. ابتسم أبي، ومسّد شعري، ثم أخبرني بما سيحدث لي بعد قليل في غرفة العمليات. «أنت ناضج. ومنذ هذه اللحظة، لم تعد مجرد ولد، بل أنتَ رجل». ثم تناول من جيبته لفافة شاش صغيرة وأخرج منها كرة صغيرة. كانت النموذج البلاستيكي للعين الزجاجية التي ستملأ الفراغ في وجهي. كان لبؤبؤها نفس لون بؤبؤ عيني الأصلي. وبياضها أيضاً مطابق تقريباً.

كلما اتصل أبي نستذكر الحادث معاً. نتذكر أيضاً نبتة الفلفل. أقول له إنها كبرت. لكن قرون الفلفل لا تنبت إلا في مطرحين فيها فقط. قرنا فلفل

فقط في كل عام. الأول يتخذ مكانه دائماً، معبّراً عن روح أمي. أما الآخر، فينبت في المكان الذي كان مخصصاً لروح أبي. لكنني أشعر، كلما حدقت فيه، بأنه يحمل روحي. ثم يروي لي أبي أنه حلم بي. الحلم نفسه في كل مرة. أنّ الأطباء استبدلوا بعيني الزجاجية واحدةً طبيعية. أعادوا إليّ عيني الحقيقية. ثم نضحك. أسأله: «لا تقل لي إنه نفس الحلم مرة أخرى»، فيقسم لي بولديه التوأمين إنه الحلم نفسه منسوخاً بحذافيره. وبعد أن نضحك وأمسح دمعةً نزلتْ من عيني السليمة، يقول لي إنني يجب ألّا أعرِّض عيني الزجاجية لبخار الماء كثيراً في المصبغة. أقول له: «لا بابا، لا تقلق. أنا الآن أضع نظارة طبية، وعيني الزجاجية تبدو فيها أكبر حجماً، تبدو مخيفة حقاً». ثم أضيف ممازحاً: «لو عادت الحرب، فسأكون شخصاً له وجه يخوّف».

فيعلّق بصوت منخفض: «ربما هذا أفضل، أفضل لكما.. أنتَ وأمّك».

ماتادور

في أسبوع واحد مات خالي ثلاث مرات. بدأ خالي ماراثون موته يوم الثلاثاء. بعد مجيئه مباشرة من المسلخ. قال: «تعرضتُ للغش»، واستلقى على الصوفا ومات. لم أكن موجوداً عندما حصل كل ذلك، لكن ماما خبَّرتني. كان خالي لابساً بدلة الماتادور الإسبانية، وملطخاً بريق بقرة أبيض اللون. وعلى ما يبدو، فقد ضحكوا عليه في المسلخ. لذلك خلع البدلة وعلّقها في الخزانة قبل أن يستلقي على الصوفا ويموت.

كانت تلك المرة الأولى التي يموت فيها خالي، وقد عاملناه طبعاً كجثة. أبقيناه في الصالون حتى مجيء دوره في الدفن. ولحسن الحظ، قالوا لنا إن الأمر لن يستغرق سوى يومين. الصالون هو الغرفة الوحيدة في البيت المزوّدة بمكيف. وهو أصغر الغرف كذلك. وعندما تشغّل المكيف في قوّته

القصوى تشعر وكأنك نملة ابتلعتْ دبوساً ولم يعد بوسعها الحراك.

شخصياً، أحب حين نُشَغِّل المكيِّف. فنحن لا نفعل ذلك إلا في المناسبات. حينها تراني لبستُ بيجامتي القطنية ولها قبعة، ورحت ألاكم في الهواء كما لو أنني ألاكم رافعة عملاقة. لقد استوحيتُ ذلك من البطل روكي في الفيلم. وهو أيضاً ما فعلتُه في جثة خالي. رحتُ ألكمه. فقط في أسفل قدميه. وعلى ما يبدو فإن اللكمات دفشت الدم من قدميه إلى قلبه فاستيقظ. هذا أعمق تحليل توصلت إليه، لكني لم أبُح به لأحد. هل تريدونني أن أقول لماما إنني لاكمتُ قدميَّ خالي الميت؟ حتى خالي لم يعرف أني لكمته. أول ما أفاق، وكان ذلك صباح الخميس، حكَّ قدمه وأخرج شوكة منها. قال إن الشوكة ظلّت تؤلم روحه فلم يستطع أن يموت بسلام. لم تكن جثته قد غُسِّلَتْ بعد ولا أظفاره مقصوصة. استحمّ. وقصّ أظفاره.

لطالما أراد خالي أن يصبح مصارع ثيران، إلا أنه لم يستطع مرةً تأمين ثمن تذكرة السفر إلى المكسيك أو إسبانيا. هذا لو حصل على فيزا بالطبع. لقد حاول مع كلتا السفارتين. كان يكتب في كل مرة أن هدفه ليس الهجرة، بل أن يصير ماتادور. إلا أن طلبه رُفِضَ ثلاث مرات. وقيل له إنه لم يعد يحق له التقدم بطلب تأشيرة، فأوصى أحد الأشخاص بأن يشتري له بدلة مصارع ثيران. ظل أربع سنوات يدفع أقساط ثمنها. كانت بدلة بطل إسبانيا في مصارعة الثيران، لويس ميغيل ديمنغوين. هذا ما قيل له. لم يصدّق أحد الأمر باستثناء خالي. راح يتشمم البدلة ويقول: «هذه بدلة بطل ماتادور بكل تأكيد. أنا أشمّ فيها أرواح كل الثيران التي قضى عليها». المهمّ أن خالي صار يلبس البدلة ويتمرن على الأبقار في المسلخ. يختار الأبقار التي تكون

في طريقها إلى الذبح، ويغادر البيت في الساعة الثانية ليلاً ثم يعود في الفجر. والمسلخ يكون ممتلئاً بالتجار واللحّامين ومحترفي الساطور والسكين. الأبقار التي جاء دورها للذبح كانت تنتظر في باحة صغيرة تمهيداً لربطها بسلاسل ورفعها. ثم يتقدم خالي، أنيقاً، بطقمه الذهبي اللون، وشعره اللماع كحذائه، وكلاهما يطليهما بالجل. ثم تفتتح المراهنات.

كان خالي ينتقي البقرة الأكبر حجماً، يهجم عليها ويمختها بيديه – يدا خالي كبيرتان بطول سيّارة الهواتف المنزلية القديمة – وما إن توشك البقرة على لفظ أنفاسها الأخيرة، حتى يتقدم أحد العاملين في المذبح وينهي المسألة بإحداث شقٍّ في بلعومها.

لا يخفى أنّ خالي في بعض المرات فقد السيطرة على قواه، فخنق البقرة إلى أن نفقتْ بين يديه. عندئذ كانت لا تعود صالحة للذبح، فيُضطَرّ إلى دفع ثمنها. لكن ما لم يعرفه الناس، أنّ خالي كان يتفق مسبقاً مع أحد صبيان المسلخ، فيقوم هذا الأخير بضرب البقرة قبل ليلة من ذبحها بالعصا على سيقانها الأربع حتى تتورم. ويصبح من السهل طرحها أرضاً.

كان خالي غشاشاً، وحين تعرَّضَ بدوره للغش، وهزمته بقرة، شعر بالذلّ ومات. على العموم، فإن أيَّ ماتادور تهزمه بقرة سيشعر بمهانة كبيرة. لكن خالي استعاد اعتزازه بنفسه وجسارته بعد أن أفاق. وكانت الشوكة الصغيرة التي انغرست في باطن قدمه سبب ذلك. ثم شرح لنا كيف أنه في موته رأى نفسه في عزبة للماتادور في الجنة. وقد أحاط بخالي كل أبطال اللعبة. حتى أنه شاهد – كما قال – حلبة لمصارعة الثيران. لكنه لم يفهم شيئاً، لأنهم كانوا يتحدثون الإسبانية. إلا أن الله أعاده إلى الحياة كي ينزع الشوكة المغروسة

في قدمه. قال له: «لن يستطيع أيٌّ ماتادور مصارعة ثور، وثمة شوكة في باطن قدمه». وحين نزعها – ولم يكن ذلك سهلاً في الحقيقة – غمرته سعادة كبيرة. يكفي أنّ الله استقبله كماتادور، لا كقاهر أبقار قادم من أحد المخيمات المتاخمة للمسلخ. الأمر الذي اعتبره خالي شهادة على موهبته في مصارعة الثيران، حتى وإن لم يكن قد صارع أيّ ثور طوال حياته.

وعلى هذا الأساس، أخرج خالي بثقة بدلة الماتادور من الخزانة ليرتديها من جديد. قال إنه لن يخلعها إطلاقاً، وسيدخل بها المسلخ ويُنازل أكبر البقرات دون غشٍّ هذه المرة. إذا كان الله قد بارك أحلامه، فلماذا يكترث برعاع المسلخ؟ لكن مفاجأةً كانت تنتظر خالي في بدلة الماتادور. لم يستطع أحد تفسير الأمر. بل إن الأمر أحدث صدمة في البيت، كما لو أن خالي لا يزال ميتاً بالفعل. فحين أراد خالي ارتداء البدلة، وجدها كبيرة على مقاسه. مبهبطة. وكان هذا غريباً جداً. فالمفروض بالجثث أن تكون قد انتفخت، وصارت ثيابها أضيق، لا أوسع. لكن حالة خالي كانت معكوسة.

خالي يرتدي البدلة منذ سبعة عشر عاماً. وهو يبذل جهداً هائلاً ليبقي جسمه ملائماً. ولا أذكر أنه اشتكى يوماً من مقاسها. لكن هذا ما حدث، وقد جرَّ الموضوع عواقب وخيمة عليّ شخصياً.

مات خالي يوم الثلاثاء، واستفاق يوم الخميس ليجد بدلته مبهبطة عليه، رغم أنه لم يفقد شعرةً من وزنه. بأية حال، لم يستطع خالي ارتداء البدلة، ولا الذهاب مجدداً إلى المسلخ كي يخبر «الهمج» هناك، كما يسميهم، بما حدث له في عزبة الماتادور في الجنة. كان عليه الآن أن يأكل ليزيد من وزنه. لكنّ بيتنا كان فقيراً. تشاجر مع ماما. فكَّ المكيِّف وأرغمها على بيعه، وأن تشتري بالنقود طعاماً.

ماما تحبّ خالي، فهو أخوها الذي يصغرها بعام، ورجل البيت منذ وفاة بابا. لا ترفض له طلباً. عرفتُ عندئذ أنني لن أتمكن مجدداً من ارتداء البيجامة القطنية ولا ملاكمة أحد. فوجدت نفسي أقول لماما معترضاً: «وماذا لو عاد ومات مرة أخرى؟». كان خالي جالساً قبالتي. ثارت ثائرته وصفعني على رقبتي وخديَّ. لم أبكِ. بل انتصبتُ قبالته متحدياً كثور صغير بلا قرون. عِجل. فهو الآن نصف ميت بالنسبة إليّ. ودَبَّتْ سعادة خبيثة في أطرافي، لكوني لاكمتُ خالي في قدميه عندما كان ميتاً في المرة الأولى.

كنت أرغب الآن في لكمه كله. أن أختبئ في بطن البقرة الكبيرة، وأول ما يضع يديه على عنقها أخرج من بلعومها كدمية الرَسُّور التي تخرج من الصندوق الصغير وألكمه في وجهه إلى أن ينفصل أنفه عن وجهه ويقع على الأرض. لكن كل ذلك لم يتحقق.

باعتْ ماما المكيِّف يوم الجمعة، واشترتْ فروجين سمينين ومكسرات وبيضاً وأنواعاً مختلفة من الخضار والحبوب والفواكه، إضافة إلى كيس أرزٍّ كبير وحليب. أمضتْ اليوم بطوله في المطبخ. وفي المساء فرشتْ لخالي طاولة كبيرة، كما لو أنه لن يكون هناك أي طعام لخالي في الجنة.

خالي لا يأكل إلا القليل عادة، كأيّ ماتادور. لكنه في ذلك المساء راح يحشر الأكل في فمه بشراهة. كما لو أنه ثور يذوق التفاح لأول مرة. منظره وهو يمضغ الطعام ويبتلعه قرّفني، فأشحت بوجهي بعيداً. أما ماما، فأخذت تقول له: «صحتين خيًا». لكن خالي، في لحظة ما، تشردق بالطعام. توقف تنفُّسه ومات. صحيح أنني كنت جالساً إلى نفس الطاولة معه، لكنني لم أدر وجهي صوبه، بل سمعته يختنق ويموت، وماما تقول: «تنفَّسْ خيًا. تنفَّسْ»، وتنتحب.

استحال خالي جثةً للمرة الثانية. حملناه هذه المرة إلى براد المستشفى. فلا مكيِّف في الصالون. استطعنا دفع تكاليف ليلةَ البراد مما بقي من ثمن المكّيف.

وفي اليوم التالي، السبت، وفي طريق تشييعه من المستشفى إلى المقبرة، أصرَّ بعض عمال المسلخ على أن يدخلوه باحة المسلخ حيث حقق خالي مآثره وكوَّن سُمْعَتَه. وقبلت ماما، بشرط أن نمرّ به على البيت وأن تُلبِسَه بدلة الماتادور.

وجدتُ ذلك سخيفاً. فالبدلة مبهبطة عليه، وسيثير منظره سخرية الناس. قلت هذا لماما، لكنها همستْ: «سأعالج الأمر. ثم لا أحد يدقق بمقاس ما يرتديه الموتى في نعوشهم».

طلبتْ ماما مني مساعدتها لإلباس خالي بدلة الماتادور. أنا فقط دون الآخرين. حفاظاً على كرامته. كان ذلك في غاية الصعوبة. فجثة خالي ثقيلة، والصالون مشوّب ولا مكيف. جعلناه في وضعية الجلوس. وكان عارياً تماماً. كنت أهمّ برفع ذراعه عندما استيقظ قائلاً: «ما الذي تفعله أيها القرد؟». موته المتكرر جعله مزاجياً. نمرود. حين وجد أن ماما تلبسه بدلة الماتادور المبهبطة عليه قبل إنزاله في القبر غضب. شتمها ودفشها. لم يرق لي أن أرى أمي تعاقب وتقع على الأرض، فنواياها طيِّبة. لكني خفت أن يهدلني فلم أعلّق على الموضوع. قال: «هل تريدان أن يضحك عليّ رجال الماتادور في الجنة؟».

أبلغنا الناس المنتظرين خارج البيت أن خالي استيقظ. فانسحبوا. بعضهم

كان منزعجاً، وطلب أن لا نحيطه علماً بموت خالي في المرة المقبلة، لأنه يعتبر نفسه قد أدى واجبه بالمشاركة في الجنازة مسبقاً.

بقي خالي معنا من الجمعة إلى الأحد، ومات في المسلخ فجر الاثنين. كان قد فقد الأمل في أن يكسب بعض الوزن كي يلائم البدلة. لقد تسرَّبَ موضوع البدلة حتى وصل المسلخ. لا أعرف كيف. الأرجح أنها ماما. ماما حَكَتْ للخياطة – والخياطة صديقتها – سائلة إياها إن كان هناك إمكانية لتضييق البدلة. والخياطة قالت: «لا»، لكنها أفشت السر. ماما نواياها طيبة دوماً. والمسلخ كله عرف. وسخروا من خالي. فذهب إلى المسلخ لابساً البدلة مبهبطة عليه، دخل الباحة، وأفلتوا عليه أقوى بقرة. لم يستطع خالي التحكم بها، فقد تعثَّر ببدلته. داسته البقرة ومات. دفنّاه مهشَّماً ومدمّى صباح الاثنين، أي بعد أسبوع على موته الأول. ولم يحضر الجنازة إلا عدد قليل من الأشخاص.

ماما غسلت البدلة، وأوكلتني أن أتصرف بها. كنا بحاجة إلى المال. فبعتُها في سوق الأحد المخصص للبالة. فرشتُ مشمع نايلون سلفتني إياه ماما وفردتُ البدلة فوقه في ثلاث قطع: البنطلون والقميص والجاكيت. خالي لم يملك يوماً حذاءً أو كلسات ماتادور. كانت البدلة كل بضاعتي، ووجب عليّ بيعها بأيّ ثمن. لكني وُفِّقتُ، إذ سرعان ما بدأ الناس يتجمعون.

وفي النهاية تقدّم مني رجل أجنبي، وأخذ يتمعن بها. ثم سألني بعربية ركيكة: «من أين لك هذه البدلة؟»، فخفتُ. أضاف: «إنها بدلة منغوين. بطل الماتادور الشهير». ودفع لي مبلغاً كبيراً. استطعتُ أن أشتري بالمال

مكيِّفاً وقفازَيْ ملاكمة أيضاً. وأعطيت باقي المال لماما. كانت بيجامتي القطنية تنتظر أن أرتديها من جديد، وقلتُ لماما: إذا متُّ ألبسيني البيجامة، ولا تنسي أن تضعي قفازَي الملاكمة في يدي.

غراموفون

بار «أبو إيليا» كان الأرخص في بيروت خلال الحصار. كان يقع في الطابق الأول تحت الأرض. ضيِّق ومستطيل. أشبه في تصميمه ببسكويتة. لكنه آمن، أو هذا ما كان يشاع عنه. أنَّ جدرانه من الإسمنت المسلّح، لكن أحداً لم يحاول التأكد من الأمر. حتى أن «أبو إيليا» وضع فيه ستاند بطاقات بريدية. وكان بعض الزبائن الأجانب، في وقت ما من السهرة، وفي عزّ القصف، يتناول واحدة من تلك البطاقات، ويبدأ بالكتابة عليها مطمئناً كما لو أنه في بيكنيك، وأبو إيليا يتكفّل بإرسالها في اليوم التالي إلى مكتب البريد.

أبي كان مُشَغِّل الغراموفون في البار. هذه وظيفته. أن يمضي ساعات وساعات واقفاً خلف الكونتوار يُدَوِّر مقبض الغراموفون القديم طراز برلينر ١٩٠٠. إذ لا كهرباء، والبار مضاء عموماً بالشموع. أحياناً يمكن

أن يتباطأ أبي لأنه تَعِبٌ، أو يفقد تركيزه لأن قذيفة سقطت في مكان قريب فيدوِّر مقبض الآلة بسرعة أكبر، ما يمطُّ صوت الأغنية. لكن لا أحد من الزبائن يعير الأمر اهتماماً. فصوت الغراموفون ضعيف. بالكاد يمكن سماعه. وما يلفت انتباه الزبائن لم يكن صوته، بل طرازه القديم، وكونه يعمل باليد. ومن يرد أن يستمع إلى الأغنية، كان عليه أن يقترب من الكونتوار. كان الغراموفون لأبي، وقد ورثناه عن جدتي. كان أبي يلعب به وهو صغير. وقد اقترح على «أبو إيليا»، لكونهما صديقين منذ أيام المدرسة، أن يضعه في البار. كان أبي أشبه بـ«دي. جاي». يعود فجراً إلى البيت، وإذا كنتُ مستيقظاً يطلب مني أن أدَلِّك له ذراعيه. كنت أحب ذلك. وأبي يغطّ في النوم دوماً بينما أفرك له ذراعيه القويّتين.

لم تنل من بار «أبو إيليا» إلا قذيفة فراغية ضربت المبنى كله. اخترقت ثلاث طبقات فيه، قبل أن تنفجر وتعصره كما لو أنه إجاصة قديمة. كان أبي من بين الضحايا طبعاً. ففي مكانه في آخر البار خلف الغراموفون، كان مستحيلاً أن يتمكن من الهرب. حين سقطت القذيفة التي امتصت كل الهواء، بقي أبي للحظة يحرّك الغراموفون، مستغرباً اختفاء صوت الآلة. كان مشوشاً بالكامل. حتى أنه لم يكن متأكداً من أن ذراعه تتحرك فعلاً. وفكّر لوهلة أنني لم أدلِّك ذراعيه جيداً فجر اليوم السابق، وشتمني، قبل أن يشعر بالاختناق وتطبق عليه الجدران والسقف.

لكنّ أبي لم يمت، بل خرج من الضربة عائشاً. لم يتوقع أحد نجاته، ولا نجاة أيٍّ من قاطني المبنى أو رواد البار. لكنه كان الوحيد الذي بقي على قيد الحياة. أنقذه الغراموفون البدائي التصميم، الذي تهشم بالطبع. قال لي

لاحقاً إن بعض الزبائن، قبيل انهيار المبنى، كانوا متجمعين حوله يتفحصون الغراموفون مصغين إلى صوته الضعيف. يشربون البيرة، وينكّتون على أبي وغراموفونه، قبل أن يلقوا حتفهم.

ما سرّع موتَهم جميعاً هو أن المكان كان على عادته، خالياً من الكراسي. وهو ما ميّز دوماً بار «أبو إيليا» الذي كان يغصّ في خمسة من أصناف البيرة الثمانية التي يقدّمها. لم أكن أعلم أن أبي قد بقي على قيد الحياة. وعندما وصلتُ إلى المبنى، كان هناك أربعة أو خمسة رجال إسعاف. وهم متطوعون. سألني واحد منهم: «هل بإمكانك التعرف إلى جثة والدك؟». جاوبت دون تفكير: «بالتأكيد». قال لي: «إذن جد طريقك بين الركام وعندما تجده دلّنا عليه». تمشيتُ. كانت رائحة الأموات مختلطة بالبيرة، والجثث كلها مبللة. حتى الجراذين لم تسلم. كانت مختنقة هي الأخرى وعيونها محتقنة بالدماء. وزبد البيرة كان لا يزال طازجاً، وقد انتشر بين كتل الحجارة. لم يكن ذلك النوع المفضل من الموتى لرجال الإسعاف أولئك. موتى قضوا وهم يحتسون الكحول، ليس مرغوباً في انتشالهم.

تعرّفتُ إلى جثة أبي من يده التي اعتدتُ تدليكها. كانت أصابعه لا تزال متكمشة بالمقبض الصغير للغراموفون. جعلني هذا أبتسم. فأبي عنيد كجَمَل رغم لطافته المعتادة. دللتُ رجل الإسعاف على أبي، فسحبنا جثته سوياً. سحبناها بسهولة، رغم هول الركام. قال لي الرجل الذي ارتدى كمّامة بيضاء: «أنتَ محظوظ يا رجل. بعض الجثث لن نتمكن من انتشالها قبل وصول الجرافات في المساء». تركتُ جثة أبي في سيارة الإسعاف، ورفض المسعف أن آخذ مقبض الغراموفون. كانت ذراعا أبي مكسوَّتَيْن

كلياً بالدماء. كأنها أنبوبان مثقوبان في عدة مطارح. ذهبت لأبلّغ أمي. كنتُ في السادسة عشرة من عمري. في الطريق إلى البيت ابتلعتُ قيئي مرتين، وعندما وصلتُ كان الألم يطحن معدتي. دخلت الحمام وتقيّأت. كان مذاق القيء حامضاً للغاية. ويبدو أن الحموضة جرحت البلعوم أو المريء، إذ خرج بعض الدم. وجعلني ذلك أفكر في الألم الذي شعر به أبي وذراعاه تستفرغان كل تلك الكمية التي رأيتها من الدم.

في المستشفى أُبلِغْنا أن أبي لم يُتَوَفّ، لكنه خسر كلتا ذراعيه. كان في السرير، بهاتين الكتفين العريضتين، أشبه ببطل خارق آلي اقتطعت ذراعاه بعد معركة ضارية من الأشرار. لكنه أول ما استفاق من البنج سألني بصوت واهن: «أين الغرامofون؟».

«تحطّمَ بابا. لم يبق شيء منه»، قلتُ.

هنا إلتفتَ إلى ذراعيه المبتورتين، كما لو أن غياب الغرامofون نبّهَه إلى أن مصيبة حلّتْ بجسده. ثم قال بتهكم: «إذن، لا حاجة لهما على أية حال».

وفيما كانت أمي تمسح دموعها، استُدعيتُ إلى مكتب الاستقبال في المستشفى حيث أُعطِيتُ مقبض الغرامofون ووقّعْتُ اسمي على ورقة. كان ذلك كل ما بقي من الآلة القديمة. لكن أبي تغيّر بعد وقت قصير من عودته إلى البيت. كان الآن مصاباً بعطب نفسي، لم أعرف أبداً ما هو. كل ما فعلته هو أنني أخفيت عنه مقبض الغرامofون ولم أخبره أي شيء بشأنه. كان يحدّق فقط في أذرعتنا أنا وأمي. دون أن ينظر إلى أعيننا أو وجوهنا. يتكلم معنا عبر أذرعتنا فقط. يركز نظره فيها حتى تشعر كما لو أن يدك

ملطخة بالحراء أو أن فيها خللاً ما، وأن عليك وضع يديك فوراً في جيبك، أو إخفاء ذراعيك بالكامل داخل كنزتك، تاركاً الكُمَّين يتدليان فارغين، كما في لعبة الشحاذ التي كنا نلعبها أنا والأولاد على الدرج.

كان أحياناً يطرح علينا أسئلة مثل: «كيف تشعر وأنت تنظر إليّ؟ قل لي بصدق، كيف تشعر؟ أليس امتيازاً أن يمتلك المرء ذراعين؟ وأمك؟ لا بد أنها تشعر بالأمر نفسه. أليس كذلك؟». وأحياناً يطلب مني تحريك ذراعيّ بطريقة يشتهيها. «ارفع ذراعك إلى أعلى، وأنزلْها كما لو أنها ميتة»، يقول. فأرد: «كُفّ عن هذا يا بابا». أو يسألني أن أقف خلفه وأسدل ذراعيّ بطريقة تبدو كما لو أنّ ذراعيّ ذراعاه. وبهذه الوضعية، نتجه معاً حيث المرآة، فينظر إلى صورته ملياً التي لها الآن ذراعاي. يتأمل نفسه قائلاً: «ذراعاك ملائمتان تماماً لجسمي. أليس كذلك؟ لا عجب أننا والد وابنه». كان ذلك مؤلماً لي أنا أيضاً، لكني لم أعلّق على الأمر. كان عليّ الانصياع له. كما لو أنني لا أزال طفلاً. فقد بدأ أبي يصبح عصبياً جداً. أما أمي، فأحسَّتْ بأنها معاقبة. فقد توقف أبي عن النوم معها. لكنها لم تستطع هجره، «سيبدأ الناس بالتكلم. بالثرثرة. سيحكمون عليّ بأنني امرأة سيئة».

كان أبي كذلك يتعمد أن يتبرز ويتبول في السرير، فصارت أمي تشتري له حفاضات، وتلبسه إياها، وتغسل له خصيتيه ومؤخرته وتحلق ذقنه بالماكينة، لأنه لم يثق بشفرة الحلاقة في يدها. ولم تفلح محاولاتي بإقناعه بأنه لا يمكن له أن يفعل ذلك بها. كان يقول: «أمك كان لها عشيق أيام كنت أعمل في البار. أنتَ لا تعلم شيئاً».

لكن القطيعة حدثت بيني وبينه أخيراً، ولم نتبادل كلمة واحدة بعد ذلك

اليوم. كان أبي قد شاهد برنامجاً طبياً في التلفزيون عن زرع الأطراف، كالذراع أو اليد. استدعاني إلى غرفته التي لم يكن يخرج منها بتاتاً. عندما دخلت، قال لي بوداعة: «سأطلب منك طلباً لم يطلبه أب من ابنه من قبل. لذلك، سوف تنال احترام الجميع. الأقارب وأصدقاؤك والجيران. كل من في الحيّ سيحترمك إذا ما حقّقْتَه لي».

«أجل بابا. أنت تعلم أني مستعد لأي شيء»، جاوبت.

كنت قد تركتُ المدرسة منذ أن تعرض أبي للحادثة، وعملت كصبيّ نجار، والآن بتُّ شريكاً مع صديقين آخرَين في مصنع للمفروشات. وأنا مستعد لأبذل كل ما بوسعي لأحقق رغبات أبي.

قال: «أريد منك أن تتبرع لي بذراع من ذراعيك الاثنتين. يقولون في التلفزيون إن الأمر ممكن طبياً». لم أصدّق أن أبي يطلب مني ذراعاً. صمتُّ. كنتُ أفكر في القنبلة الفراغية تلك والغراموفون، تمنيتُ لو كنتُ أنا من فقد ذراعيه بدلاً منه. لكن أبي في تلك اللحظة قال كما لو أنه كان يقرأ أفكاري: «لو كنتَ أنتَ من فقد ذراعيه، لتبرعتُ لك بذراعي دون تردد. ما قيمة الذراع مقابل أن أراك أو تراني سعيداً؟».

«أوافقك الرأي أنّ هذا طلبٌ لم يطلبه أبٌ من ابنه قط. هذا أوريجينال يا بابا. أوريجينال تماماً»، قلت بنبرة ساخرة وحزينة في نفس الوقت. حاولت إقناعه باستحالة الأمر «وماذا لو فشلت العملية؟ أكون عندئذ قد خسرت ذراعي». فانفجر غاضباً في وجهي. قال إنني أناني، وإنه في أسوأ الأحوال ستبقى لي ذراع. «ذراع واحدة أفضل من لا شيء على الإطلاق»، قال.

انسحبتُ من الغرفة. فكرتُ في المسألة. كنتُ حزيناً على أبي. لم أشعر بالغضب أو الخيبة. كنت فقط حزيناً، وأخبرت أمي. كنت على وشك القبول. فأنا لم أعد بحاجة إلى استعمال ذراعيَّ في مصنع المفروشات. أنا أُشرف فقط على التصاميم، وأقترح بعض التعديلات أحياناً. ويمكنني أن أوظف مساعداً حتى. شريكاي لن يمانعا. لكن أمي توسلتني: «لا تُصغِ إليه. أرجوك لا تُصغِ إليه. أنا مستعدة لأن أقضي بقية حياتي أحفِّضه وأغسل له خراءه وأحلق ذَقنه وأتحمل كل مهاناته، لكن لا أن أراك فاقداً ذراعاً من ذراعيك».

رفض أبي بعد ذلك التحدث إليّ. كان ناقماً، لكنه ظلَّ يأمل، وبكبرياء كبيرة، أنني سأغيِّر رأيي فأدخل غرفته على نحو مفاجئ قائلاً: «حسناً بابا، قبلتُ! سنسافر معاً إلى فرنسا لإجراء العملية».

كنت الآن أسافر كثيراً. إلى باريس. أزور صديقتي. كانت زيارتي قصيرة وسريعة لكنها مريحة، لكوني أمضيها بعيداً عن البيت الذي بات الآن مسمَّماً بسبب مزاج أبي الذي غدا أكثر سوءاً، وحزن أمي التي باتت تحمل جسداً أصبح الآن ملعباً لضغط الدم وفوضى دقات القلب ولهو السكري.

في إحدى المرات، أهدتني صديقتي علبة موسيقى. كان لها مانيفيل صغير، وعندما تدوِّرها بإصبعيك يخرج لحنُ أغنية «Non, je ne regrette rien» لإديث بياف. كنت لا أزال أحتفظ بمقبض الغراموفون في بيروت. وعندما عدت من السفر، خطر لي أن أربط المقبض بذراع علبة الموسيقى الصغيرة. وهذا ما فعلته. فكرتُ في أن أهدي أبي علبة الموسيقى بمقبض الغراموفون الذي كان يشغله في بار أبو إيليا، في ذكرى عيد ميلاده، علّه يصفح عني. لكني

تراجعت. فالأمر كان بلا شك سيستفزه. إلا أنّ أبي عثر على العلبة، وتمكن من إحضارها إلى غرفته. لا أعلم كيف تمكن من وضعها على الكومودينة بين علب الدواء التي يتناولها. لم يقل شيئاً. وضع العلبة بمقبض الغراموفون القديم على الكومودينة. وبالطبع، لم يكن لديه القدرة على تشغيلها قط، ولم يطلب من أمي أن تشغلها له، أو ربما كان مهتماً فقط بمقبض الغراموفون، وربما لأنه لم يستطع فصله عن علبة الموسيقى الصغيرة، احتفظ بالمقبض والعلبة معاً.

كان الأمر برمته محرجاً لي. فقد شعرت لأول مرة بالذنب، أولاً لاحتفاظي بالمقبض طوال ثلاث وعشرين سنة على الحادثة، دون أن أُفصح له عن الأمر، ومن ثم سماحي لنفسي بوصل المقبض بعلبة موسيقى من فرنسا، البلد الذي لطالما ودّ أبي إجراء عملية فيه لزرع ذراع من ذراعيّ. أظنّ أنّ الأمر آلمه. توقف أبي عن تناول الطعام لأيام. وبعدها بفترة قصيرة، انهار جسده. كان الآن في الثانية والسبعين من عمره. دخلت غرفته. كان مصفرّاً تماماً، فاغراً فمه ويتنفس بتقطُّع. كلَّمتُه، إلا أنه لم يستجب. كان غير واعٍ بالمرة. استدعينا طبيباً، ففحصه على عجل وأبلغنا أن نبضه ضعيف وأمامه ساعات فقط ثم علّق له كيس مصل، «هذا أفضل. من يدري ماذا يمكن أن يحدث»، وانصرف.

لم يكن هناك ما أستطيع فعله. جلستُ إلى طرف السرير بجانبه، وتناولتُ علبة الموسيقى المزودة الآن بمقبض الغراموفون القديم، الذي كان آخر ما أمسكتْ به يد أبي قبل بتر ذراعيه، ورحت أحرّكها. كنت أريده أن يسمع موسيقى العلبة قبل أن يرحل. ورأيت ابتسامة ضعيفة تفتر عن شفتيه.

كان سعيداً، لكنه لم يستفق. ابتسم فقط. ليس هذا وحسب، بل بدا لي أن ذراعيه تنموان، ببطء، من مكان بترهما، كما لو أنهما نبتتا فطر أُزيحت عنهما قبعة مليئة بالأقفال. حمّسني ذلك، فأخذتُ أدوّر المقبض بقوة أكثر فأكثر. وكان قلبي يخفق بشدة. كنتُ أريد لذراعيه أن تكتملا، تكتملا تماماً، كما لو أن القنبلة الفراغية لم تسقط أبداً، وأمي لم تمضِ حياتها تحفِّضُه، وهو لم يبقَ بجانب علبة الموسيقى الصغيرة هذه، منتظراً أن يحدث شيءٌ ما، شيءٌ غير عادي على الإطلاق.

نكتة

أجرب أن أبتكر نكتة. نكتة جديدة تماماً. ليس في رأسي نكات جاهزة. أما النكات القليلة التي سمعتها فلا أتذكر منها شيئاً. لذلك أحاول رسم سيناريو لنكتة في رأسي. أنظر حولي. لا شيء يمكن استخدامه في النكتة سوى والديّ. ليسا والديّ الحقيقيين. إنهما والداي بالتبني. وابنهما خرج ليتسول. قد لا يكون ابنهما. ربما هو أيضاً ابنهما بالتبني. البعض يقول إنه أخي. لكنني لا أصدق، رغم ما بيننا من شبه في الملامح. أشفق عليه أحياناً، لأن له ذراعاً واحدة. لكنه بها يستطيع أن يتسول. أما أنا فلا.

إنه المعيل الوحيد في البيت. لأن والديّ بالتبني عجوزان. وأنا لا أزال صغيراً، يقولان. ثم إن مشكلتي الصحية تمنعني من التسول أو العمل. أخجل في أن أقولها لأحد، فقد تكون بسيطة لكم، ولا تستحق الذكر. ما

الذي بوسع فتىً مثلي أن يشتغل حين يحتاج أن يتبول كل ربع ساعة. كيف يحدث ذلك؟ لا أعرف! ورغم أنني لا أشرب الكثير من الماء، إلا أنني بحاجة إلى التبول دوماً، حتى وأنا نائم. بقيت فترة أتبول تحتي. كنت أبلل الفرشة كلها. أو إذا حدث ونمت في فناء البيت، حيث أكوام الزبالة، أبلل كل الورق فيها. والداي لا يبالان نومي هناك. وأنا لا أجد نوم المرء وسط زبالته عيباً، بل العيب أن ينام المرء وسط زبالة الآخرين. لكنني لم أعد أفعل ذلك، فقد كبرت سنة أو سنتين. حين تكبر تفكر أكثر، وتبتكر طرقاً لتفادي مشكلة ما. لذلك، أنا الآن أرتدي حفاضاً. ويمكنني النوم أينما رغبت.

أحياناً أنام على الصوفا، متخيلاً أن التلفزيون يعمل وأنني أرى كل القنوات فيه دفعةً واحدة. لا أعرف كيف، لكن لا بد أن هناك طريقة لترى كل القنوات في التلفزيون دفعة واحدة. ثم يعود أخي من الشغل، يأخذ من يدي الصابونة ويقول لي: «هذا ليس ريموت كونترول»، بصوت عال وبطيء. هكذا: «هذا - ليس - ريموت - كونترول». ويحملني إلى غرفة النوم. حين أكون نائماً لا أستطيع المشي إلا بساقَيْ شخص آخر.

الغرفة نتشاركها أنا وهو. وفي النهار نستخدمها كمطبخ. بينما ينام العجوزان في الغرفة التالية. في الشتاء كنت أنام في فناء البيت، بين أكوام الزبالة. فذلك أكثر دفئاً. يعمل لي أخي بذراعه الوحيدة حصيرة من الجرائد. يجمعها خلال النهار من المحلات القريبة وصالونات الحلاقة والمقاهي والسوبرماركت. كل يوم يتسول أخي في شارع مختلف. كي يبقى متجدداً. المتسوّل الجديد يلفت الانتباه. وكل يوم أفكر بنكتة كي أحكيها له، لأنني لا أملك أية وسيلة أخرى أشكره بها. أقول له: «ذات يوم سأخترع نكتة جميلة وطويلة

لك. تجعلك تضحكُ يومين متواصلين، حتى أنك لا تتوقف عن الضحك ولو لدقيقة». فيهزّ برأسه. لا أتذكر أنني رأيت أخي يضحك. ليس بعد أن استوقفه باب زجاجي في عمارة ضخمة، وانتبه إلى أن له ذراعاً ونصف ذراع، لا ذراعين. والداي يقولان إنه نزل من بطن والدتي هكذا.

أعرف أن النكتة الجديدة لن تجعل من أخي شحاذاً سعيداً، لكنني أريدها أن تكون قوية لدرجة أنها تُدرج في سيرتي الذاتية، ومدتها تكون أكبر من صوتها، فيضحك أخي يومين متواصلين، حتى أنه لا يذهب للتسوّل. لأنه، كأي شحاذ، لن يجني قرشاً واحداً إذا كان واقفاً على الرصيف مادّاً ذراعه الوحيدة وهو يقهقه. والطعام سيفرغ من البيت، لأننا لن نملك نقوداً ليومين. ثم إنك عندما تضحك كثيراً تجوع. كأنك تفعل رياضة، الأمر الذي يُغضِبُ والدي العجوز فيعاقبني بأن يجردني من الحفاض. بينما تحتّي والدتي ما بقي من الحفاضات، وترمي لي المسحة، فأقضي اليومين وأنا ألاحق بولي الذي يكون قد بلّل ثيابي وكرسيّ الحمام والأرضية والفرشة والفناء، لتنظيفه. وأحياناً قد أنزلق، وأحياناً قد أتبول تحتي بينما أنظّف بول الجولة السابقة، فيما أخي يضحك صافعاً جبينه بعضلات ذراعه الوحيدة، قائلاً بصعوبة: «لا فائدة يا رجل. لا فائدة».

سينما

حدث الأمر كله في اليوم الخامس لاتخاذنا السينما ملجأً. كان الطعام قد نفد تقريباً، ووجباتنا اقتصرت على أقراص الجبنة الصفراء المثلثة. كانت ماما تُخرِج من بطن الدبدوب الذي حملتْه أختي معها قرص جبنة عند الساعة الواحدة ظهراً وتقسمه نصفين. آكل أنا نصفه وأختي تأكل نصفه الآخر، خافضَين رأسينا تحت مقاعد السينما المُخمل، كي لا يرانا الأطفال الآخرون، الجوعى مثلنا. لم نقل لأحد إنّ بطن الدبدوب كان فيه سبعة أقراص جبنة.

في الثامنة مساءً، كانت ماما تُخرِج من بطن الدبدوب قرصَ جبنة آخر، فنأكله أنا وأختي بنفس الطريقة ثم ننام. عشرات العائلات لجأتْ إلى السينما، لكون السينما في مستوى الطابق الثالث تحت الأرض.

في اليوم الأول، توزعت العائلات على المقاعد، لكنّ القصف كان يشتدّ في كل يوم، وكان الناس ينزلون قليلاً في كل مرة من المقاعد العلوية إلى أسفل. وعندما قصفت مجنزرة الجيش المحتل حجرة بروجكتور الأفلام التي في أعلى الصالة، أصبح معظم العائلات محتشداً على الخشبة ووراء الستارة. وصار الفاصل بيننا وبين العالم الخارجي، هو الحائط الصغير الذي يفصل بين حجرة بروجكتور الأفلام وبين صالة السينما، وبات بإمكان الإطفال رؤية ضوء النهار من خلال الفرجة المستطيلة التي يخرج منها عادة شعاع الفيلم.

أحياناً كنا نرى المجنون «كيمو» يمر. وكيمو لم يهرب إلى أي مكان طيلة أيام الحرب. ولم يكن مرحّباً به عموماً في أي ملجأ. قيل إن سبب جنونه هو شظية لا تزال في جسمه. لكن لا أحد عرف مكانها بالضبط. من خشبة السينما كنتَ ترى الطريق الفارغة. وإذا وقفتَ في زاوية الستارة، فسيظهر لك طرف صغير جداً من دولاب مدينة الملاهي الهائل. زاوية الستارة كانت المكان المفضل للأطفال. هناك تجمعوا طوال اليوم.

في اليوم الخامس سقطت قذيفة على السينما. بين المقاعد. لا أتذكر كل التفاصيل. لكن ما فعلتْه القذيفة هو أنها قذفتني من الخشبة إلى أحد المقاعد في السينما. حين فتحت عينيّ، لم يكن بإمكاني الحركة، وكان المقعد مقلوباً، موجَّهاً الآن نحو الطريق، لا شاشة العرض. الغريب أيضاً أنّ الحائط الفاصل بين حجرة البروجكتور وصالة السينما لم ينهدّ. وعندما حاولت أن أعرف من أين سقطت القذيفة داخل السينما، لم أفلح، إذ لم يكن هناك أي فجوة في أيّ مكان. دبدوب أختي كان الآن بين ذراعيّ. أما أختي فلم تكن

موجودة. ولا أمي ولا أي من الأطفال والعائلات. أما الدبدوب فكان ممتلئاً بأقراص الجبنة الصفراء، حتى أنه كان بينها أقراص جبنة لم أرَ مثلها قبلاً، من ماركة أخرى.

ناديت أختي: «أختي، أختي، تعالي نتقاسم قرص جبنة، بل قرصين. قرص كامل لك، وقرص كامل لي، فإما ليست هنا». إلا أن أختي لم تظهر. لم أنهض عن المقعد. لم يكن هناك من سبب يدفعني إلى النهوض. فمقعد السينما جميل ودافئ. وتشعر، بسبب رائحته، كما لو أن فرشه محشوّ بملايين حبات الرمل الناعمة والموصولة ببعضها بخيوط. خيوط دقيقة جداً. حتى أن فكرة خطرت لي: أن آخذه معي إلى القبر. وبدل أن أُدفَن مستلقياً، أُدفَن جالساً على مقعد السينما. لا أعرف لم خطرت لي هذه الفكرة، فأنا وفي وسط تلك السكينة في السينما، كنت بالفعل مطمئناً جداً.

في صباح اليوم التالي، رأيتُ البقرة. كنت لا أزال جالساً في المقعد ومرّت البقرة بحجرة البروجكتور. وقفتْ للحظات. خفضَتْ رأسها ونظرت إليّ من خلال الفرجة المستطيلة ثم تابعت طريقها. كانت بقرة جميلة وكبيرة. وتلفَّتُّ حولي بحثاً عن أختي أو أي طفل آخر لألفتَ انتباهه إليها، لكن السينما كانت فارغة. حاولت أن أنهض عن مقعد السينما إلا أنني لم أتمكن. كان الدبدوب جاثماً فوق بطني، لكني لم أستطع زحزحته. كان ثقيلاً. تساءلت إن كان ذلك سببه أقراص الجبنة الصفراء التي في بطنه. فتحتُ سحّابة الدبدوب وأخرجتُ قرصاً. قشرته وقسمته نصفين. أكلتُ نصفه بلقمة واحدة، ورفعت نصفه الآخر في الهواء. كنت آمل أن تراه أختي فتخرج من مخبئها وتأتي إليّ، فقد تكون جالسة في أحد المقاعد خلفي،

وجائعة مثلي. لكن أختي لم تظهر. فأكلت النصف الآخر لقرص الجبنة. لكني لم أشبع، فأخرجت قرصاً آخر من بطن الدبدوب وأكلته، ثم قرصاً ثالثاً ورابعاً. لم أستطع التوقف عن الأكل. كنت جائعاً، وكانت أقراص الجبنة لذيذة بالفعل، حتى تلك التي لم أذقها من قبل. أكلت بضعة أقراص دفعة واحدة، إلا أنني لم أشبع.

شعرت بالتعب من أكل أقراص الجبنة، جالساً على مقعد السينما، فغفوت. الغريب أنّ مقاعد السينما كلها كانت لا تزال بالاتجاه الصحيح، عدا المقعد الذي كنت جالساً عليه، ظهره كان للشاشة، وكان مواجهاً لحجرة البروجكتور في الأعلى.

تكرر الأمر نفسه صباح اليوم التالي. مرّت البقر ونظرتْ إليّ من خلال الفرجة المستطيلة في غرفة البروجكتور، ثم تابعت طريقها. لا أخفي عليكم أنّ البقرة أثارت فضولي. سألت نفسي: «ما الذي تفعله بقرة في حجرة بروجكتور الأفلام؟». خطر لي أنّ الجيش أطلقها لتتجسس على سكان السينما. لم أكن أعرف شيئاً عن سلوك الأبقار. لكني وجدت نفسي راغباً في اللحاق بها، فقد كانت أول بقرة أراها بعينيَّ المجرَّدتين.

كان الدبدوب الآن أخفَّ وزناً، بسبب استهلاكي بعضاً من أقراص الجبنة التي كانت في بطنه. قشرت ثلاثة أقراص على وجه السرعة ودسستُها واحداً تلو الآخر في فمي. كان طعمها الآن مختلفاً. أقلّ شهية من قبل. وأثارت لزوجة الجبنة أمعائي. كانت الآن تدغدغ سقف حلقي، وشعرت بأنني سأتقيأ، لكني تجرّعتها كدواء. رغم ذلك، لم أتمكن من النهوض عن المقعد إلا بمشقة كبيرة، لأتبع البقرة. خرجت من صالة السينما ومشيت

وراءها. لم تكن البقرة تحثّ الخطى، بل تمشي بتمهل شديد. كانت تشقّ طريقها بصعوبة بسبب الحطام المبعثر في كل مكان. رغم ذلك، بدتْ مطمئنة تماماً. وكأنها تعرف وجهتها. لفتتْ انتباهي نظافتُها كما لو أنها قطة منزل وليست بقرة. لكنها كانت أيضاً بين الحين والآخر تتوقف وتحني رأسها وتأكل شيئاً سقط للتو عن الأرض. لم أستطع أن أرى ما الذي كانت البقرة تأكله. لكني تبيَّنْتُ أنها جائعة. كان الدبدوب في يدي. ظننتُ أنّي تركته على مقعد السينما، إلا أنني اكتشفت أنه بين ذراعيَّ. وكالعادة، منذ قُصِفت السينما، كان مليئاً بأقراص الجبنة. هذه المرة لم يكن ثقيلاً كما كان أثناء جلوسي على المقعد. حتى أنني شعرتُ بأنه محشوّ إلى الآخر بمثلثات الجبنة. أخرجتُ منه قرصاً وقذفته بأقصى قوة باتجاه البقرة الجائعة، علَّها تأكله. لم أقشّره، ولم أكن متأكداً من أن البقرة ستستطيع تقشيره بأسنانها. لكني قذفته. القرص مع أنه كان صغيراً، لم يصل إلى مدى بعيد. سقط على بعد خطوة أو خطوتين مني. والبقرة لم تنتبه له على الإطلاق. فقد سقط وراءها ولم يحدث اصطدامه بالأرض أيّ صوت. أخرجت قرصاً آخر، قشّرته هذه المرة، وقذفته. سقط أيضاً على بعد خطوة أو خطوتين مني. كان الأمر كما لو أنني أقذفُ بشوال ثقيل.

لا أعرف لماذا لم يكن قرص الجبنة يصل أبعد من ذلك. أقفلتُ سحّاب الدبدوب وتبعتُ البقرة. لم تكن تمشي ببطء بسبب الحطام فقط، بل لأن الشارع كان ضيقاً عليها. كانت بقرة سمينة فعلاً، لكنها أكملتْ سيرها. كلما تقدَّمتْ كان جسمها السمين يحفّ بحيطان المباني المتلاصقة. في بعض الأحيان، تسقط زرّيعة. تتهشم على الأرض، فتتوقف البقرة وتحني رأسها وتأكلها. كان هناك زراريع أخرى محطمة ومدفونة تحت الركام، إلا أن

البقرة لم تلتفت إليها. كانت تأكل فقط الزراريع التي تسقط بفعل احتكاك جسمها بحيطان المباني.

كنت أريد أن أتبع البقرة لأعرف أين ستذهب، لكني خفت أن أضيِّع السينما. فعدت أدراجي. في الطريق، حاولت إخراج بعض الزراريع من تحت دبش الحجارة، لكن الدبش كانت ثقيلة. لم أتمكن حتى من زحزحتها ولو مسافة قمحة. كنت أريد فعلاً أن أسدّ جوع البقرة بالزراريع الميتة. فالبقرة قد تكون خائفة، وخوفها هو ما يمنعها من التوقف برهةً للأكل، لذلك لا تأكل إلا الزراريع التي تسقط لأنها أسهل ولا يضطرها ذلك إلى التوقف طويلاً.

لكن البقرة لم تكن كتلك الأبقار التي تقع من الشاحنات أو تفرّ من المزرعة قبل ليلة من ذبحها لتختبئ في صف مدرسة وعيناها السوداوان دامعتان وقلبها يخفق بشدة. لا. إنها بقرة مختلفة عن أية بقرة قد يسمع عنها المرء. فقد كانت لجندي، وكان دائم البحث عنها. في الطريق إلى السينما أوقفني وسألني إن كنت رأيت بقرة في الأرجاء. عرفت من زيّه أنه واحد من الجنود الذين بسببهم اختبأنا في السينما. لذلك، حين بدأ يتحدث إليّ خفتُ، وكدتُ أبكي. لكنه قال لي إنه لن يؤذيني إذا دللته على مكان البقرة. قلت له إنني لم أرَ أية بقرة في الأرجاء. وشعرت بأنني أقول الحقيقة، الحقيقة كاملةً، وأنني فعلاً لم أرَ أية بقرة قريبة أو بعيدة. سألني أيضاً عن الدبدوب، فقلت إنه للطعام، وفيه أقراص جبنة. لكنه لم يكترث. لم يسألني أن أفتح سحاب الدبدوب ليتأكد. كان هناك مسدس على خصره.

قال لي الجندي إنه أتى بالبقرة من بيته البعيد، وإنهم عندما استدعوه للحرب، استحال عليه فراق بقرته، فاصطحبها معه. كان يحبها كثيراً.

وقال إن البقرة جلست معه في الدبابة. أدخلها إلى الدبابة من دون علم الضباط. لكنه فقدها قبل أيام. تعرضت دبابته لكمين، وأصيبت ذراعه ففقد الوعي، وعندما استعاد وعيه سأل عن البقرة، فظنوا أنه يهلوس. أعطوه حقنة منوِّمة، وعندما أفاق سألهم مرة ثانية، فأعطوه حقنة منوم أخرى. قال إنه بقي أسبوعاً يتلقى حقناً منومة، سواء سأل عن البقرة أو لا، ثم أعادوه إلى الجيش. لكن، كيف استطاعت بقرة أن تتسلق وتخرج من الدبابة، لا يعرف. كان يتحدث وكنت أصغي. قال لي إنه صعد إلى الشقق السكنية. كان يطرق الباب وعندما يفتح له الناس يسألهم: «هل يوجد هنا إرهابيون؟» لكنه لم يكن مهتماً بـ«الإرهابيين»، بل بالبقرة. لم يكن يدخل البيوت، بل من مكانه على الباب، يسترق النظر إلى الداخل ليرى إن كانت موجودة أو لا. فهو يعرف صوتها جيداً، ويستطيع تمييزه. وبقرته لا تستطيع تحمّل الغرباء، لذلك ستخور بلا شك أول ما ترى صديقها الجندي.

عندما أنهى الجندي كلامه، غادرتُ. لم أرد التحدث معه في شيء. قلت له: «لم أرَ البقرة» ومشيت. وتابع هو طريقه في اتجاه آخر، مستكملاً البحث عنها. قبل أن أصل إلى السينما قررتُ أنني سأقتل البقرة حين أراها مجدداً، وإذا لم أتمكن من قتلها، فيجب أن أؤذيها، بحيث يستحيل عليه إدخالها في الدبابة. كنت متأكداً، لسبب لا أعرفه، من أن البقرة ستمرّ بحجرة البروجكتور في الصباح التالي. وهذا ما حدث.

ووجدتُ نفسي أمشي وراءها مرة أخرى.

اتَّبَعْتُ البقرة المسار نفسه. كنت مصمّماً هذه المرة على أن أسبقها إلى المباني. ركضتُ بأقصى سرعتي ممسكاً بيد الدبدوب الذي راح يتأرجح في الهواء ببطء،

لكون بطنه منفوخاً بأقراص الجبنة. تجاوزتُ البقرة، وعند أول مبنى توقفت، أخرجت قرص جبنة وسددت الشقوق التي في المبنى. وفعلت الأمر نفسه بكل مبنى كنت أصل إليه. الآن حين يحتكّ جسم البقرة بالمباني لن تسقط أية زريعة. والبقرة ستموت من الجوع. ظللت لثلاثة أيام ألاحق البقرة وأسبقها إلى المباني وأملأ الصدوع بالجبنة. البقرة غيَّرتْ مسارها مراراً، واتجهت نحو مبانٍ أخرى، لكني كنت أسبقها ولا أتيح لها أية فرصة بإيقاع زريعة من علُ. لم تأكل البقرة أية لقمة لثلاثة أيام متتالية، إلى أن سقطت أرضاً من الجوع. لأنها بقرة لا قطة، لم تلحس الجبنة عن الحيطان كما قد تفعل القطط.

كانت البقرة منهكة. أنا أيضاً كنت منهكاً. وقفت أنظر إليها شاعراً بالراحة. حتى أنني رفستها. لكن الرفسة لم تحدث بها أيَّ ألم. ففي الأيام الماضية، عملت كثيراً. معظم الوقت أمضيته في سدّ الشقوق بالجبنة، ولم أتناول قرصاً واحداً. أنا أيضاً لم آكل شيئاً طيلة أيام العمل، لأنني كنت بحاجة لاستعمال كل الأقراص. ولم أكن أستريح إلا نوماً على مقعد السينما المواجه لغرفة البروجكتور. لم أجلس في أيِّ مقعد سواه. فهو المقعد الوحيد المواجه لغرفة البروجكتور، ومنه أستطيع رؤية البقرة وهي تمرّ في الصباح.

لكن البقرة راحت تخور وهي ممدَّدة على الأرض. وخشيت أن يسمع الجندي خوارها فيأتي ويعتقلني. لحسن الحظ كان خوارها واهناً بسبب ضعف بدنها. كان عليّ أن أجد طريقة ما أعذّب فيها البقرة من دون أن يكتشف الجندي الأمر إذا ما وجدها.

بين الرُّكام، وجدتُ أربع كرات قدم. كان جميعها مفخوتاً. لمستُها وذهبت إلى البقرة. حين رأتني البقرة أقترب منها بالكرات حاولتْ النهوض.

كانت خائفة. خائفة جداً. مشتْ خطوات قليلة، لكنها سرعان ما جثمت في أرضها وهي تلهث. اغتنمتُ الفرصة، ودسستُ شقفةً من كرة القدم الكاوتشوك في فمها. البقرة تمنعت بادئ الأمر، لكنها لشدّة ما هي جوعانة أخذتْ تمضغ قطعة الكاوتشوك. ثم ابتلعتها.

في النهاية، أكلت البقرة كرات القدم الأربع. لكنها بدل أن تتعذب وتصاب مثلاً بإسهال أو مغص في معدتها، انتفخ جسمها. وتحسنت صحتها. شعرتُ بأنّني أخطأت بإطعام البقرة كرات الكاوتشوك. ذلك أنها لم تتأثر ولم تُصَب بأيِّ أذىً.

جربتُ أشياء أخرى: بقايا صحون، فواكه قديمة، خبز معفن، شريط حذاء، بكلة شنطة مدرسية، علاّقة مفاتيح. كل شيء، عدا الصور الفوتوغرافية والكاسيتات. والبقرة أكلتها دون أن تتذمر. كان وزنها يزيد واستعادت نشاطها. لكنّ عينيها كانتا حزينتين. وأنا تجنبتُ النظر إليهما كي لا أبكي. كانت منتفخةً الآن إلى حدٍّ غريب، وكان وبرها واقفاً. كانت أشبه بقنفذ عملاق أبيض ببقع سوداء. وأخذتْ تبحثُ عن أي شيء تأكله. وفي اليوم التالي رأيتُها تأكل قطع حلوى وكاتو وسكاكر بالكريمة، لا أعلم أين عثرت عليها. لكنها لم تستطع التوقف عن الأكل.

في اليوم الأخير، جاءت البقرة كعادتها، في الصباح. عبرت غرفة البروجكتور، لكن ببطء. كانت الآن أضخم من أي وقت مضى. وثقلها فاق ما تستطيع قوائمها تحمّله. كانت أيضاً متسخة ومصابة برضوض. ربما كانت قد تعثرت في الطريق أو أن جسماً ما سقط عليها من المباني المتهالكة والمحيطة بالسينما التي كنتُ قد سددتُ شقوقها بالجبنة. فالذباب بدأ مؤخراً

بلحس الجبنة. وربما أثّر ذلك على قوة تلك المباني. كنت جالساً على المقعد نفسه في السينما، وحولي كل شيء ساكن. لم يكن من أحد سواي. لا أمي ولا أختي ولا الآخرون. نظرتِ البقرة إليّ من خلال فتحة حجرة البروجكتور بعينيها، إلا أنها هذه المرة لم تذهب إلى أيِّ مكان. لم تستطع مغادرة غرفة البروجكتور. وبدل أن تتقدم خطوة واحدة، جلستْ في مكانها. نهضتُ عن مقعدي في السينما ودخلتُ غرفة البروجكتور. كنت أريد للبقرة أن تغادر، أن تمشي كما تمشي كل يوم. لكنها بقيت جالسة. سدَّدت إليها عدة رفسات. إلا أنها لم تئنّ أو تطلق خواراً. حاولتُ دفشَها بكلتا يديّ، لكن قواي كانت صغيرة جداً وغير فعالة. تراجعتُ قليلاً إلى الخلف ونظرتُ إليها. ثم عدتُ إلى السينما وجلستُ في مقعدي أتفرج على البقرة التي عرفت أنها لن تغادر إلى أي مكان. كانت البقرة الآن تسدّ ضوء الشمس الذي اعتاد أن يدخل الصالة كل صباح عبر فتحة حائط البروجكتور. وكانت صالة السينما الآن معتمة كلياً، كما يحدث حين تُطفأ كل الأنوار، لأنّ الفيلم يكون على وشك أن يبدأ.

بسكويت

أمي هادئةٌ في المقعد الخلفي. وأنا أسرد نكتة لزوجتي وأقود السيارة. نحن في طريقنا إلى مصحّ الأمراض النفسية والعقلية لإعادة أمي بعد أن أمضت يوم عطلتها معنا. أمي نزيلة المصحِّ العقلي ستة أيام في الأسبوع. زهايمر. سرعة السيارة ثمانون كيلومتراً في الساعة. وهذا ليس مجرد تفصيل. لن أعرف أبداً ما إذا كانت النكتة مُوفقة أو لا. إذ لم يتسنَّ لزوجتي أن تضحك. في اللحظة التي انتهيتُ فيها من سرد النكتة، رأينا شيخاً يقطع الجهة الأخرى من الأوتوستراد. بخمسين كلم/ الساعة، يتاحُ للمرء رؤية مشهد موت سريع، ببطء.

أوقفتُ السيارة طبعاً، شأني شأن العديد من الناس، وأنزلتُ بمساعدة زوجتي أميَ، وتركناها تتفرج على المشهد من وراء القاطع الإسمنتي. كان

الشيخ عجيباً بالفعل. يدخل بين السيارات بخفة، يقفز على قدم واحدة، يعفو عن سيارة ما، يتملص، يدور حول نفسه، يكرج كدولاب، ينفتح كدبوس أطفال، ويسدد لكمته الضعيفة. أبقيتُ أمي وزوجتي على مسافة آمنة مخافة أن يلمسنا الشيخ بقفازه، فنتحول نحن أيضاً إلى بسكويت. ذلك أن قفاز الشيخ أخذ ينفلش أكثر فأكثر كلما لامس حوافَّ سيارة وحوَّلها إلى بسكويتة. زوجتي حاولت أن تقول شيئاً للشيخ. لكني لكزتُها بكوعي ففهمتْ أن عليها التزام الصمت. أما أمي فشربتْ عيناها المشهد برمته، خاصة أنني أخذتُ أصفه لها بأدق تفاصيله، بحماسة معلّق رياضي.

الشيخ لم يبدُ قلِقاً. سلك بضع خطوات على الأوتوستراد بين السيارات المسرعة، ثم خلع قبعته البيضاء اللون ولفّها حول قبضته كقفّاز ملاكمة. لم يكن الشيخ يريد أن يلكم السيارات، بل أن يلمسها فقط. والسيارات المسرعة حاولت تفاديه، إلا أنها لم تفلح. كانت كل سيارة يلمسها تتحول إلى كتلة من البسكويت. ومن فرط سرعتها، تنقلب لينتهي أمرها مفتتةً على جانب الطريق. كان المشهد ساحراً حتى أول ثلاثة أفواج من السيارات. وسرعان ما تشكلت كومة من فتات البسكويت العملاق على جانب الطريق.

في الطريق إلى المصحة، قالت زوجتي وهي تبتسم إنها كانت تودُّ أن تسأل الشيخ سؤالاً واحداً فقط. لم أعلّق. وصلنا إلى باب المصحة. أنزلتُ أمي من السيارة ووضعتُها في يد الممرضة الجميلة وأنا أهمس في أذنها: «ماما، أخبري المدموزيل حكاية الشيخ». وبالفعل، انطلقتْ أمي في مونولوغ البسكويتة، وهي تبتعد مع الممرضة. وسمعتُ الأخيرة تقول لها: «وماذا

حدث أيضاً؟»، وأمي تصمت لأنها لم تعد تذكر، والممرضة تقترح: «ما رأيُكِ أن نعطيك إبرة تساعدك على تذكُّر تتمة الحكاية؟».

هذا ما أفعله عادةً مع أمي. أضعُها أمام حكاية ما مرةً في الأسبوع. الأسبوع الفائت كنا بمفردنا. زوجتي لم تكن معنا. أوقفتُ السيارة أمام بيّاع بسكويت. صبيٌّ يحمل على ظهره شوال جنفيص ضخماً ممتلئاً بقطع بسكويت عملاقة، ويبيعه بالكيلو. بسكويت لصنع حلويات منزلية. يصوِّب نحو السيارات التي يجد فيها سيدات كبيرات في السنّ، جازماً بأنهن أمهات.

اتّجه نحو شبّاك أمي في السيارة سائلاً: «مدام، بدّك بسكويتة؟ خذي قطعة وأعطيني ما شئتِ من المال مقابلها». لكن أمي لم تجاوب. لم تعرف لوهلة ما الذي يتحدث عنه الصبي. قلت لها: «ماما. بسكويتة. بسكويت. تعرفين ما هو البسكويت، أليس كذلك؟». لكنها لم تجاوب. طلبتُ من الصبي أن يخرج بسكويتة من شواله ويريها إياها. «بسكويتة هائلة الحجم يا ماما، أليس كذلك؟»، قلتُ. وأمي ابتسمت لرؤية البسكويتة العملاقة. «هذه تعادل في حجمها نصف غطاء محرك سيارة «رينو ٥» التي أقودُها الآن». ثم أضفت أن مع الصبي قطعاً أخرى من البسكويت، بعضها بحجم بلاطة وبعضها بحجم لوح مدرسة.

أمي لم تعد تستطيع تحضير كل تلك الحلويات اللذيذة التي برعت في عملها أيام الحرب. فخَبزُ الكاتو يتطلب فقط تركيزاً عالياً، وفي بعض الظروف، عزيمة كذلك. كانت أمي تعمل وسط القصف وزعيق الجيران وأولادهم. تتركنا ننزل إلى الملجأ برفقة أبي، وتبقى في المطبخ. لا تلحق بنا إلا وفي يدها

قالب الكاتو الذي شكّل البسكويت دائماً المكون الرئيسي فيه، لأنه أرخص ثمناً من حشوه بالشوكولاتة أو الكريمه أو الفواكه. أبي كان يعشق الكاتو بالبسكويت. قلت لأمي ونحن نغادر صبي البسكويت الذي لم يوفق في بيعنا قطعة من بضاعته: «الأسبوع القادم سأريك من أين يأتي الصبي بكل هذا البسكويت».

في المستشفى تصاب أمي أحياناً بنوبة غضب وتقول لطبيبها إنني أنا من يختلق كل هذه القصص. والطبيب استدعاني أكثر من مرة للتحقق من صحة كلامها. أنا أنكرُ الامر طبعاً. أقول إن أمي مصابة بالزهايمر، وهذا كل ما في الأمر. والزهايمر هو ما يوصلها إلى كل هذا الخلط والاتهامات. تقول: «الشيخ كان ميتاً، مضرجاً بدمائه. حاول بائساً قطع الأوتوستراد لكن سيارة دهسته. لم أر أي بسكويت». لكنها تضيف أنها غير متأكدة من هذا، وتنهار، فيعطونها إبرة مهدئة.

أنا أعرف أن أمي غير مصابة بالزهايمر. أمي أيضاً تعرف هذا. وربما الطبيب. لكني أدفع نفقات المصح بانتظام، بما في ذلك علاج الزهايمر. ليس كي تمكث أمي في المصح، بل في قصة البسكويت.

إضافة إلى عطلة نهاية الأسبوع، أزور أمي مرة كل يوم أربعاء. أمكث معها لساعة أو ساعة ونصف. أمي تبقى صامتة. أما أنا فأقول لها إن الشيخ الذي أريتُه لها لا يزال على الأوتوستراد. «يرتدي قفازه الأبيض ويلمس السيارات. بعض السائقين حاول صدمه. ومنهم جندي في جيپ عسكري. وجميعهم انتهى أمره عالقاً داخل بسكويتة. لم يتمكن أحد حتى هذه اللحظة من إزاحته عن الطريق. والرجل الستيني كما

رأيته أول مرة يا أمي. يدخل بين السيارات. يقفز على قدم واحدة. يعفو عن سيارة ما. يتململ. يدور حول نفسه. جرَّبوا معه الأسهم المخدرة، إلا أنه تفاداها جميعها. الرصاص التحذيري أيضاً لم يُجدِ نفعاً. ومشهد الشيخ صار اعتيادياً. حتى أنه لم يعد هناك أناس يقفون على جانب الطريق للتفرج، عدا بعض السياح الذين يلتقطون الصور الفوتوغرافية للشيخ أو يسجّلونه فيديو بهواتفهم. ثلاث عربات إطفاء كبيرة تقف اليوم على جانب الأوتوستراد. كلما حوَّل الشيخ سيارة إلى قطعة بسكويت يقوم رجال الإطفاء فوراً برشّها بخراطيم الماء لتبليلها وتخليص الناس من داخلها. ذلك أن البسكويت الذي أصله معدن سيارة لا يشبه البسكويت المطبوخ في الأفران والمعامل». بعد ذلك تسألني أمي: «ألا تعتقد أن الشيخ الذي يخلّي السيارات تصير بسكويتاً يشبه والدك؟». وأمي تقصد أبي الذي لم نر له أثراً منذ أكثر من عشرين عاماً، بعد أن حزم حقائبه بعد انتهاء الحرب، زاعماً انه ذاهب في بعثة رياضية. وأمي ظلت يومياً تخرج إلى الشباك وتشتمه بأعلى صوتها، لدرجة أن الأمر أصبح مزعجاً للجيران، ومحرجاً لي.

كل نهاية أسبوع نعبر أنا وزوجتي الأوتوستراد مارّين بالشيخ. أمي تكون جالسة في الخلف. في لحظة ما، أنظر إلى أمي عبر مرآة السيارة الداخلية هامساً: «الشيخ يقترب منا الآن للمس سيارتنا». عندها تبادر زوجتي إلى القول بصورة أوتوماتيكية: «شيخ، هل أنت راضٍ؟». أمي باتت مقتنعة الآن بأن الشيخ كلما سمع هذا، يُشَلّ، الأمر الذي يتيح لنا فرصة الفرار. وأحياناً تقف دورية شرطة بجانبنا على الأوتوستراد، ويسألنا أحد أفرادها عن سبب ركننا السيارة بهذه الطريقة، فنتجادل أنا وزوجتي. أنا لا أحبذ

الإفصاح عن أي تفاصيل أخرى في هذه القصة لأحد، عدا أمي التي كلما جاء يوم عطلتها الأسبوعية، أفعل كل ما بوسعي لأجعلها تظنُّ أننا ذاهبان إلى المطبخ.

الحمّال

بصراحة، أنا لا أتمتع بروح الدعابة، ولا أفهم لماذا يبتسم الناس. في الغالب، تراني مُتجهِّماً. لا أنظر إلى الوجوه عندما أمشي، ولا أُسَلِّم على أحد. ذلك أن الناس لا يسمحون لك بأن تُسَلِّم عليهم وأنت متجهِّم. أنتَ مُلزَمٌ بأن تبتسم كل مرة ترفع فيها يدك أو تومئ برأسك لإلقاء التحية على أحدهم. سواء حدث هذا في الصباح أو المساء. حتى وإن التقيتَ بالشخص في زقاق معتم. وهذا بحد ذاته مرهق. أما إذا سلَّمتَ دون أن تبتسم، فسيعاديك الشخص، وأؤكدُ لك أنه في المرة القادمة سوف يدير وجهه إلى الجهة الأخرى. وأنا فكرتُ طويلاً بالمسألة. بما أنّ السلام على الآخرين يكلفني في كل مرة ابتسامة أنا غير قادر بالفعل على إطلاقها، أفضّل ألّا أسلِّم من الأساس. لا يعني أنني ليس بِوُدِّي أن أسلّم على الناس. إطلاقاً. أنا فقط

غير قادر على الابتسام. جِد لي الحل. لو سَلَمْتُ على أحد وأنا مطأطئ الرأس، فسيظن أنني لا أعيرُه اهتماماً كافياً، أو أنّ بي خطباً ما، أنّ عاراً ألمّ بي أو نكسة دهمتني، أو أنّ مكروهاً عظيماً ضربني. لذلك، واختصاراً لكل هذا الإرباك الذي من الممكن أن أسبّبه للآخرين، قررت ألّا أنظر إلى أحد حين أمشي. ألّا أرفع رأسي إطلاقاً.

أنا على هذه الحال منذ أربعة وأربعين عاماً. منذ يوم عيد ميلادي التاسع. كنت طفلاً ووقفتُ أمام أبي وقلت له: «لن أبتسم لأحد بعد الآن». أبي ضحك وقتها، ولم يأخذ المسألة على محمل الجد. حين يقول لك طفل في التاسعة إنه لن يبتسم بعد الآن، فأنتَ لن تُصَدِّقه طبعاً. لا يمكن لأحد في هذا العالم أن يمنع نفسه بالكامل عن الابتسام. حتى أسوأ المرضى النفسيين يبتسم أحياناً. المجرمون والعاطلون من العمل كذلك. ستظنُّهُ محضَ كلام فوري طالع من طفل. لكن هذا لم يكن وضعي.

أبي أخبر أميَ التي ضمَّتْني إلى صدرها وهي تتهجأ كلاماً مداعباً من ذلك الذي يَضحَكُ الطفل لسماعه. إلا أنني لم أبتسم. كانت تلك أول مرة أنفِّذ فيها قراري بعدم الابتسام. ليس من الصواب تسميته قراراً. قُل: لازمة. كانت تلك أول مرة أنفذ فيها لازمتي، التي ستتكرر مراراً، بعدم الابتسام. بين ذراعي أمي.

لديَّ الجرأة الآن لأقول إنها كانت بداية جيدة. حين تمتنع عن الابتسام وأنت بين يديْ أمك الطريَّتين، فهذا يعني أنك تتمتع بثقة بالنفس تؤهلك لعدم الابتسام في وجه العالم أجمع. لم أقصد أن أسبّب لأمي إساءة، ولا لأبي. لكنهما أُثبطا، وصارا يتشاجران. في الأول، كنت أظن أنني إذا ابتسمتُ

فستأتي سيارة الإسعاف وتأخذني. كان هذا محض شعور، ولم أملك تفسيراً آخر. لقد قررت ألّا أبتسم وحسب. وحين كان يسألني أحد الأولاد، أقول: «إذا ابتسمتُ فستأتي سيارة الإسعاف وتأخذني»، فينفجرُ بالضحك. ثم مات أبي. ولم يلبث أن قفز اسم أمي هي الأخرى إلى سجل الوفيات.

مات والداي دون أن يريا ابتسامتي. كنت حينذاك قد أصبحتُ مراهقاً. أتذكر أن أمي توسَّلَتْني وهي على فراش الموت لأن أبتسم. كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتقول: «خلِّني أرى ابتسامتك». إلا أنّ هذا كان آخر ما يمكن أن يحدث في الحياة. في تلك اللحظة بالذات، لم يكن بإمكاني أن أبتسم. صحيح أنني لم أحاول لأنني لم أكن قادراً في مثل هذه الظروف. إلا أنني كنت مدركاً في قرارة نفسي أنّ الأمر مستحيل. تمنَّيتُ لو كان بإمكاني استعارة ابتسامة من وجه أحد الجيران، أن أطرق باب بيته فيفتح لي مبتسماً فأنزع الابتسامة عن وجهه وألصقها فوق وجهي فوراً وأعود إلى أمي. ماذا بوسعي القول. شعرت بالعجز وبدأتُ أنتحب. وسرعان ما هرع الجيران وتجمعوا في الغرفة. كان هناك نحوُ عشرين شخصاً حول السرير. وأخذوا يدمدمون الصلوات التي من شأنها أن ترخِّي روح أمي وهي تخرج منها. إلا أن أمي لم تلتفت لأحد منهم. كانت تستجمع آخر قواها محاولة القول: «أرجوك. ابتسامة فقط»، إلا أنني فشلت. كان وجهي يابساً كرغيف مشبع بالمربى من اليوم السابق. وبما أن معضلتي معروفة بالنسبة إلى الجميع، فقد انهمك الجيران بمساعدتي. توقفوا فوراً عن تلاوة الصلوات، وبدأوا يسردون ما يتذكرونه من نكات. انهالت عليّ عشرات النكات نكتة وراء أخرى، حتى أن بعضها كان بذيئاً. كانت تلك محاولة الجيران، مشكورين، لفَرشِ ابتسامة فوق وجهي. أترك لك أن تتصور المشهد. أمي تُحتَضَر

وتطلب مني ابتسامة، والجيران يطلقون النكات حول سريرها وأنا عاجز عن الابتسام. وبعد دقائق توفيت أمي، وتشاجرت مع الجيران وطردتهم من الغرفة. لم أتمالك نفسي. تصرفت كمسعور.

بعد أيام زرت طبيباً نفسياً. سجَّلَ الكثير من الملاحظات، وكتب لي دواء. وبعد عدة جلسات نصحني بأن أذهب إلى البيت، وقال إنه سيتصل بي. وأنا ذهبت إلى البيت. الطبيب إلى الآن لم يتصل ولم أسمع عنه شيئاً. حدث هذا منذ وقت طويل. وهناك الكثير من التفاصيل، إلا أنني لم أعد أتذكرها. والآن أشعر بأنني مدين لأمي بابتسامة. لكني لن أتمكن أبداً من تسديدها.

مضى وقت طويل على وفاة الأم، وأنا ما زلتُ أقيم في نفس البيت. صحيحٌ أني لا أبتسم، لكنني لا أشعر بأنني أفرق عن الناس في شيء. حتى أن حاجتي إلى الابتسام أو الضحك الذي يوصي به الطب واليوغا تلاشتْ كلياً. جيراني اعتادوا منذ زمن طويل على هذا الرجلَ الذي لا يبتسم ولا يُسَلِّم على أحد. والآن بتُّ أمشي بانحناء شديد تلاحظه حتى الحيوانات.

لم أرِ لكم السبب الذي دفع الطبيب النفسي إلى صرفي من العيادة. عندما ضغط بالسماعة على صدري لم يسمعْ خفقان قلب، بل «ها – ها – ها...». فقال بانفعال: «شو عم تِتْمَنْيَك عليّ؟» فتشاجرنا. وهكذا. انتهيتُ أنا في البيت أفكر في المسألة. وهو لم يتَّصل.

مع مرور الزمن، وتقدمي في السن، أصبح ظهري سميكاً كظهر وحيد قرن عجوز. وارتفاعي انخفض إلى مستوى خصري. صرتُ أشْبَهَ بهذا الشكل: ٦٦ . كنت أبدو وأنا أمشي وأنظر إلى الأرض كما لو أنني مؤنَّب. إلا أنَّ

الواقع لم يكن كذلك. ولن تُصدِّقوا ما سأقوله. فقد بدأ ظهري يصبح متيناً كبلاطة. وتمدّدتْ حوافه. وتلقائياً وجدتُ لي عملاً. حَمَّالُ أعياد ميلاد. أقف في مكاني وأحمل أعياد ميلاد الأطفال. الجلسة تستمر ثلاث ساعات أحياناً وأحياناً أربع. من الخطأ تسميتها جلسة. هي بالأحرى وقفة. أحرص على أن أصل في الموعد المحدد، ولا يلبث أن يمتلئ ظهري بالأطفال. يصعدون مهلّلين. ويجتمع الطفل برفاقه المعازيم وأمه وأبيه وأخوته للاحتفال بعيد ميلاده. أما أنا، فلا أرى شيئاً. فقط أسمع أصواتهم الآتية من فوق. وقهقهاتهم. بينما أكون ناظراً إلى الأرض. أشبه رفّاً جوالاً. أو منصة. لو سُئِلتُ، سأفضِّلُ تعبير رفّ. منصة تعبير مبالغ فيه. وحيثما يختار ذوو الطفل أن يعملوا عيد ميلاده أذهب.

قد تراني واقفاً في حديقة عامة أو على شاطئ أو حتى في ملعب مدرسة. منظري يثير الاستغراب. أحياناً يتوافد الناس ويتفرجون ويلتقطون الصور. لكني لا أكترث. أتقاضى أجراً لا بأس به. ثم بعد أن ينصرف الجميع أرجع إلى بيتي. تواجهني معضلة واحدة، وهي تتعلق بكيفية غسل ظهري. ظهري السميك كالباطون، والذي أستعمله عارياً. تعلمون، أعياد ميلاد الأطفال تخلّف الكثير من الأوساخ. ويتحتّم علي شطف ظهري جيداً. لكن الجيران يساعدونني. يأخذونني إلى الكاراج ويرشونني بنبريج الماء الرفيع. ضخامة جثتي لا تربكهم. إنهم لطفاء. يراعون مشاعري فلا يحاولون الابتسام أو تبادل النكات أو الأحاديث الطريفة وهم يغسلونني. لكنني أسمعهم من بيتي لاحقاً فارطين من الضحك. ربما يتندَّرون عليّ.

المفروض بأصوات الأطفال المبهجة أن تفرحني وأن تبعث فيّ الرغبة في

الابتسام. إلّا أنّ هذا لا يحدث في حالتي. حتى وإن أنزل لي طفل قطعة حلوى قبل أن يصعد مجدداً إلى ظهري، لا أبتسم. لا أقصد ألّا أبتسم. أنا فقط هكذا. أقول له شكراً، لكنه يظنني غير فرحان لعيد ميلاده. إذ أبدو له متجهماً.

أودُّ القول إن هناك فارقاً بين التجهم وعدم الابتسام. لكن، كيف تقنع طفلاً بهذا؟ أي طفل لن تبتسم له في عيد ميلاده سيصاب بالارتباك. ثم تتدخل أمه مؤنبة إياي. فيكون عليَّ بذل مجهود لإقناع الطفل بأنني غير متجهم، وأنّ المسألة غير شخصية. إذا لم أفعل هذا، لا أحصل على أجري. أقول له: «أنا لستُ عابساً»، فيجاوب من فوق: «إذا كنتَ غير عابس، فلماذا لا تبتسم يا عمو؟».

«أنا فقط لا أعرف كيف أبتسم»، أردّ.

ولا يلبث أن يتدخل باقي الأطفال، ويقذفونني من فوق بالكاتو، محاولين إصابة وجهي. وهنا تنتهي الحفلة.

حصل هذا في أكثر من أربع حفلات. وكان بالنسبة إليّ كافياً لأغيّر مهنتي. أتذكر أنني في إحدى المرات قلت للأطفال: «لو ابتسمتُ فسيهتز ظهري وتقع الحفلة كلها، بما في ذلك أنتم، عنه». فكان ردُّهم أن تشبّثوا بظهري مستخدمين أظافرهم الصغيرة والحادة كاللعنة وطالبوني بالابتسام. وقد آلمني ذلك. أحد الأطفال قال: «ابتسم ولن نقع». إلا أنني لم أبتسم طبعاً. حتى وإن لم يحصل سوء التفاهم مع الأطفال، كان عليّ بأية حال التوقف عن حمل أعياد الميلاد. ذلك أن ظهري استمر في انحنائه إلى الأمام. فلم

يعد أفقياً. وتحتم عليّ في أكثر من مناسبة الركض والاختباء من الحمائم التي تسعى دوماً للوقوف تحتي احتماءً من المطر. ثم إن عجائز مشردين تجمعوا حولي بينما كنت أتبول في زقاق وأخذوا يتفحصونني ظناً أنني زحليطة. حتى أن بعضهم حاول الركوب عليّ. وأنا لم أحرك ساكناً إلا بعد أن انتهيت من التبول. فحملت نفسي بهدوء وغادرتُ. وماذا فعل أولئك؟ قهقهوا طبعاً. لا أفهم لماذا قد يفكر عجوز بالتزحلط. الفكرة بحد ذاتها أزّقتْني، فشعرت بالإهانة، ووجدت نفسي في اليوم التالي أترصد عجوزاً مشرداً وأنقضُّ عليه.

المسكين جزع. حتى أنه شخَّ في ملابسه. لم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه سوى تنكة بيرة (١/ ٢ ليتر) فأخذ يرشُّني بها ويصرخ. أخافته فكرة أنّ زحليطة تهاجمه. وجررتُه عنوة إلى الكاراج وغسلتُه من الشخاخ بالنبريج الرفيع الذي يغسلني به الجيران. النبريج نفسه. جيراني أوغاد. أعرف ذلك. هذا حكمي النهائي عليهم. أنا أسحب كلامي السابق بشأنهم. لم أقل لكم إنهم يراهنون في ما بينهم على من يستطيع جعلي أقهقه وهم يغسلونني. يلكزون خاصرتي بلمسات رقيقة. كما لو أنني قحبتهم الخرساء. يريدونني أن أضحك دون أن ألاحظ أنهم يزكزكونني.

أحد هؤلاء الجيران أطلّ من شباك غرفته بينما كنت أغسل المشرَّد وقال لي «زكزِكْه كي يضحك». لم أعرف بماذا أجيبه. لكن أية إجابة مني كانت ستبدو فظّة. والوغد ظلّ واقفاً على البلكونة يقهقه قبل أن يدخل من تلقاء نفسه إلى بيته. أما العجوز الذي كان بين يديّ، فقد ظل يرتجف وأنا أغسله. كان أحد القلائل الذين يقيمون تحت جسر اكتسب سمعة سيئة في الحرب. سألني سؤالاً واحداً بجسمه الذي لم يتوقف عن الاهتزاز: «هل أنتَ عزرائيل؟».

«وهل تظن أن عزرائيل سيغسلك بنبريج المياه في كاراج بناية قبل أن يقبض روحك؟». فأخذ يضحك. لم يرق لي أنه يضحك. إذ لم يكن قصدي أن أطلق دعابة. أنا لا أتمتع بروح الدعابة أصلاً، ولا أسعى للتمرن عليها، ولا أريد أن أجيد تأليفها. لهذا قلت له: «أنا بالفعل عزرائيل. وقبل أن أقبض على روحك عليك أن تجيبني ما الذي يجعل عجوزاً يفكر بالتزحلق على زحليطة؟». ثم رفعتُ نبريج المياه بشكل عمودي وسددتُ فتحته بإبهامي، طالباً منه أن يجاوب «قبل أن تنزل زخة الماء التي سأطلقُها في الهواء على الأرض». لكن العجوز لم يجاوب أبداً. لماذا؟ لأن قلبه توقف. قبل أن تنزل زخة الماء على الأرض، كان قد زفر أنفاسه الأخيرة في الكاراج. هذا لأن عزرائيل الحقيقي كان على ما يبدو موجوداً في الجوار. لا أخفيكم أنني جزعتُ. فأنا لم أحظَ بفرصةِ قتلِ أحدهم من قبل. لذلك لم أعرف كيف أتصرف بعدها. حاولتُ على الفور جرَّ جثة العجوز لإعادتها إلى الجسر، إلا أنّ رجال الشرطة أحاطوا بي. طبيعي! حين ترتبكُ، يكون أمام جيرانك الأوغاد فرصة لأن يشوا بك. لكن العجوز المشرَّد لم يكن لديه أوراق ثبوتيّة، فأفرجوا عني مؤقتاً. هذا كل شيء. أريد أن أضيف ملحوظة. وهي أن حياتي تبدَّلتْ كلياً. فأنا أعيش الآن بصورة مختلفة تماماً. أنال احترام الجميع، بما في ذلك جيراني الأوغاد. وحتى لو أعادوني إلى السجن، سيكون بإمكاني النجاة وسط أعتى المجرمين وأردئهم سمعة. فعلى الرغم من أنني أمضيت جل حياتي لا أجيد الابتسام، بتُّ الآن أُعرَفُ بأنني الرجل القادر على قتل الناس بدعابة.

سيندروم أحلام الآخرين

حين يحلم، لا يكون حسام الشخصية الرئيسة في الحلم. بل قد لا يكون أية شخصية على الإطلاق. في كل مرة يجد نفسه كما لو أنه أعطي روحاً وحياة جديدتين، لكن في سياق عديم الأهمية. «لماذا يحدث لي هذا؟»، يقول لي وأنا أدفع كفالة خروجه من الحبس.

ما إن يغمض عينيه، حتى يرى نفسه يغيِّر شخصيته في غرفة ملابس أحلام الآخرين، ثم يُستَدعى ليأخذ مكانه في الحلم. اسمه يختلف من حلم لآخر. بحسب ما سيقوم به. وفي مرات كثيرة لا يكون له أيُّ اسم بالمرّة. حتى أنه، ولتفاهته في الأحلام التي يجد نفسه فيها، لا يتَوَجَّه إليه أحد بالكلام مباشرة. ما إن يسمع حسام أحدَ العاملين في طاقم الحلم ينادي «هاتوا المبراة» أو «أين الكلب؟» أو «ناول بطل الحلم منفضة السجائر»، حتى

يتأهب. وذلك ما يكونه حسام، المبراة أو الكلب أو منفضة السجائر. لم يكن البطل مرة. إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مبراةً أو كلباً أو منفض سجائر يتولى دور البطولة في حلم ما.

غالباً ما تبدأ أحلامه بنفس الطريقة، في غرفة ملابس. «يكون المكان ضاجّاً، كما لو أنهم يصوِّرون الحلم. كالأفلام»، يقول. ولكل حلم مبرمِج. قل مُخرِج. جالس دوماً في كرسيّه، ولم أره يفعل شيئاً. وظيفته أنّ له الحق الحصري بإدارة الحلم. لكونه الرجل الذي يحلم. تجده يداعب كلبه أو يحكُّ خصيتيه أو يقبِّل بطريقة وسخة فتاة تتوق لتصبح شخصاً آخر. وفي يده الأخرى يحمل منظاراً عسكرياً ويراقب مسار الحلم. حتى أن حسام رأى نفسه في الحلم مرةً على أنه الفتاةُ التي يقبِّلها المخرج. قال إنه كان منزعجاً، لكنه قبَّل الرجل، بل وسمح له بأن يمرر أصابعه على مؤخرته. قال لي هامساً، بعد أن وعدته بشرفي ألا أخبر أحداً: «كنتُ في الحلم فتاة. تخيَّل. هل حلمتَ يوماً بأنك فتاة؟ أنا حلمتُ. أكثر ما في الأمر إزعاجاً، هو أنني كنتُ في الحلم فتاةً تريدُ أن تصبح نجمة بأية طريقة ممكنة. فتاة wannabe. لو اقتصر الأمر على كوني فتاة «وانابي» لكان أخفّ وطأة». ثم هناك الأخطاء التي ترتكبها شخصيات الحلم أحياناً، ما يضطرهم إلى إعادة الحلم برمته. لكن هذا لا يحدث في نفس الليلة، بل في الليلة التالية، ومن دون أن يكون حسام على علم بالأمر. «هذا يعتبر غدراً. ألا تعتقد؟ أن تنام وتجد نفسك مكروراً في الحلم نفسه» يقول لي.

في إحدى المرات، ظل لستة أيام يرى نفسه ممدداً على حمالة في مستشفى. مع تغيير طفيف في بعض التفاصيل. كمكان ساعة الحائط أو مستوى ارتفاع

البردايةِ أو علو الصوت. «كان ذلك مريعاً. كان هناك ممرضون يدفعونني في الممر. لكني لم أعرف إلى أين أنا ذاهب. حتى أنني لم أكن أعرف ما إذا كنت نازلاً إلى الثلاجة أو متجهاً إلى غرفة العناية الفائقة. من عدد الممرضين حولي حدست أن وضعي حرج». رغم ذلك، لم يكن حسام الشخصية الأولى في ذلك الحلم. فالحمالة في كل مرة، عبرتْ برجل يزعق «لا.. لا.. لا..». كان هذا الرجل الشخصية الأساسية في الحلم، رغم أنه لم يكن يقول سوى «لا».

«كان صراخه مزعجاً وقبيحاً في آن واحد. حتى أنني حاولت – ومهما تكن مأساته – أن أرفع إصبعي الوسطى في وجهه، إلا أن ذلك لم يكن مسموحاً على ما يبدو. وحاولت أن أستيقظ، لكني لم أستطع. كان هو محور الحلم. أما أنا فكنت مجرد عنصر من عناصر الديكور. ألا يحدث في الحلم أن ترى أشخاصاً بعيدين مثلاً؟ في الخلفية. أنا دائماً في خلفية أحلام الآخرين». فالحالم، على ما يبدو، لم يكن راضياً عن حلمه. كان يريد لحلمه أن يكون ممتازاً على المستوى الدرامي. فبقي يراجعه في رأسه ستة أيام متتالية.

«يا إلهي! هذا أشبه بجلسات محاكمة»، قلت ساخراً. وقال لي إنه لا يأبه، محاكمة أو لا، وعليه أن يضع حداً لهذا. «لماذا هذه الألاعيب؟ أنا لم أؤذ أحداً قط».

«أجل. ليس قبل أن تبدأ برؤية نفسك في أحلام الآخرين»، قلت.

حسام محق في اعتراضه. فهو شخص شديد التهذيب عادة. كحلزون. التهذيب بالنسبة إليه خيار. أنجع خيار لتجنّب الناس. للبقاء على

سطحهم. «عندئذ، يمكنك تقشير نفسك عنهم وقتما تشاء دون أن يشعروا بألم»، تلك فلسفته.

كان يعيش في غرفة صغيرة. بمفرده. يتشارك الدش مع جيران آخرين. الدش خارج غرفته. لا يستحم إلّا بعد أن يتأكد من أنّ الجميع استحم قبله. أحياناً ينتظر حتى ساعة متأخرة من الليل. وليس له إلا صديق واحد هو أنا. وقد أحببتُ تهذيبه.

في أحد الأحلام، وجد نفسه في علاقة حب مع فتاة. لا أعلم إذا كان لتهذيبه علاقة بالأمر. «بدأنا العلاقة سريعاً. لا يمكنك أن تتخيل. في غضون دقائق أصبحنا عاشقين. ووجدت نفسي أقبّلها في سيارتها. على الأوتوستراد. كانت هي من يقود. لكن عجوزاً مرَّ بقربنا وأخذ يشتم ويفتعل حركات بذيئة بيديه. ثم أقلع وتخطانا. وبعد دقائق وجدنا أنفسنا عالقَين في عجقة سير، فأخذنا نتبادل القبل بجنون، والسائقون ينظرون إلينا. لم نأبه لأحد. حتى أني عصرتُ ثديها الأيسر. لكن العجوز النحس، وجدناه واقفاً قرب شرطي سير. كان قد بلّغ عنا. وبتنا مطلوبَيْن لإخلالنا بالآداب العامة. ما إن اقتربنا حتى دلّ علينا وأخذ يشتم. أوقفَنا الشرطيُّ وراح يعظنا كما لو أنه راهب وليس شرطياً. طأطأتُ رأسي خجلاً وراحت الفتاة تبكي». في الصباح التالي، أول ما استيقظ حسام، كان لا يزال يشعرُ بالذنب. ارتدى ثيابه وفوراً اتجه إلى محل لبيع الورود. ابتاع باقة وأخذ يؤلف جملةً يعتذر بها من الفتاة. فهو يراها كل يوم. إنها تقيم قرب مكتب السفريات حيث يعمل. وما يلفت انتباهه فيها، هو بوط الكاوتشوك الأبيض الذي تنتعله.

كانت باقة الورود التي حملها أيضاً بيضاء. «لا بدّ أنها تحب الأبيض»، قال.

وربما تُعلّق في بوطها واحدة منها حتى. سيكون هذا أورجينال.

اقترب حسام من الفتاة قائلاً: «أعتذر»، مقدِّماً لها الباقة. الفتاة استغربت، أو ربما تظاهرت بالاستغراب. وحين استفسرتْ منه سبب اعتذاره، سألها: «ألم تحلمي بي الليلة الفائتة؟».

«عفواً؟ ولماذا قد أحلم بك؟ هل أعرفك؟».

«لا. لكنك حلمتِ بي»، أجاب. ثم ارتفعت نبرته.

كان قد أصبح عصبياً. وتجمهر المارة حولهما. كما لو أنها جينيريك كاميرا خفيّة. راح الناس ينظرون إلى البنايات مفتشين عن الكاميرا المخبأة، ويبتسمون. وحسام يقول: «هذه الفتاة حلمتْ بي الليلة الفائتة. أنا متأكد. اسألوها. كان ذلك قبل ساعات فقط. والآن تتبرأ مني. هراء!». لكن الفتاة لم تكذب، فهي فعلاً لا تعرفه.

«كذّابة، كذّابة»، أخذ يصرخ، ثم رمى الورود على الأرض وراح يدوسها. «فلتتفحم وروداً في قعر الجحيم»، قال.

انتهى أمره في المخفر وكاد يخسر وظيفته.

أنا موافق تماماً أن مشاكل حسام لم يكن هو مسؤولاً عنها، بل أحلام الآخرين. أكثر ما ضايقه أنه لم يكن دائماً يظهر في أحلام الآخرين بشكله البشري المعتاد. كان الناس يسخطونه في أحلامهم. في إحدى المرات رأى نفسه قفصاً. المشكلة ليست هنا، بل بما كان يوجد داخل القفص. «قرد. كان في داخلي قرد. مقمّل ومنتن. أنت تعلم كم أبغض القردة. مؤخراتها

المكشوفة مقززة. ضع نفسك مكاني. أن تكون قفصاً يعني أن لا مفر. أنت محكوم برؤية مؤخرة القرد حتماً مهما كانت وضعيتُه».

وأحياناً حلم بأنه حاجة إنسانية ملحّة. أتذكر عندما أخبرني كيف رأى نفسه في المنام عوينات معلّقةً على غصن شجرة. صاحب العوينات كان ولداً صغيراً يبكي تحت الغصن. الولد الصغير كان الشخصية الأساسية، لكونه جالساً على كرسي مبرمج الحلم. لكنه لم يفعل شيئاً. كان ولداً كسولاً. بل في غاية الكسل. فالغصن لم يكن بذلك الارتفاع. «ما الذي كان ينتظره؟ أن تحدث هزة أرضية، لتوقع العوينات وتنقذ الموقف؟».

أما أسوأ أحلامه على الإطلاق، فكان حين رأى نفسه بهيئة خربة كلب على الرصيف. لم يكن بإمكانه التصرف. «لا القفز من مكاني ممكن ولا الزحف. كنت ملتصقاً بالارض بشكل محكم. وتعرّقتُ. يبدو أني كنت خربة طازجة. خربة خرجتْ للتوّ. لكني لم أرَ من مكاني أي كلب قريب. وظننت أني لن أخرج أبداً من هذا الحلم. أن أقضي بقية عمري بهيئة خربة على رصيف. وبعد دقائق اندلعت الحرب. كانت حرباً مستعرة. استعملت فيها الأر بي جي والدكتريوف. وحصل اجتياح وانتشر المسلحون».

وفي خضمّ بحثه عن مبرمج الحلم الذي لم يظهر إطلاقاً، رأى حسام بوطاً عسكرياً يهوي فوقه ويقتلعه عن الرصيف. «يا رجل. تصور أن تكون أنتَ الخربة التي علقت للتوّ في بوط مسلّح أثناء ما يبدو أنه هجوم». وبينما رفاقه يتقدمون بحسب الخطة، يتوقف المسلح محاولاً إزالتك عن بوطه، لأن رائحتك تشتّت تركيزه. يحفّك بالرصيف ثم يبدأ بشتم الأمعاء التي أنزلتك. وفي لحظات ينتبه إلى أنه مكشوف. لا أحد يغطيه، والرفاق تابعوا

تقدمهم. إما لأنها قوة الرائحة أو لأسباب استراتيجية تتعلق بالمدة التقديرية للهجوم. ثم بدأ إطلاق النار لحماية نفسه. كان يحفّ بوطه ليزيل الخراء عنه ويطلق النار في نفس الوقت. طبعاً، عشوائياً. إلا أنه تلقى رصاصة، رصاصتين. في ساقه، ثم خاصرته. سالت الدماء وبلّلت بنطاله العسكري ووصلت إلى بوطه ثم لامستني. وبسبب الدماء، انقلعتُ عن البوط. لكنني كنت لا أزال مبلّلاً بدم ذلك المسلح».

لم تكن كل أحلامه مريعة. مرة رأى نفسه قبلة. لم يكن حسام الشفاه التي تبادلت القبل. «كنت القبلة بعينها. لا أعرف كيف أفسّر ذلك. كنت مجرد شعور في الحلم».

الذين كانوا يتخذون وظيفة مبرمج الصور في أحلامه، لم يكونوا سوى جيران حسام، وأحياناً أفراداً من عائلته. بل وحتى زوجته السابقة. وقد تحدثت إلى بعضهم في مركز البوليس أو المستشفى. أكدوا لي بدهشة أنّ ما يقوله حسام بشأن أحلامهم صحيح مئة بالمئة. والبعض كان سيتقدم بشكوى ضد حسام في المحكمة. إذ لا يمكن لحسام تحميلهم مسؤولية أحلامهم.

لم يكن بإمكان حسام فعل شيء سوى انتظار أن يستيقظ مضيفه. أن يفتح عينيه. عندئذ كان حسام يفيق هو أيضاً، نافضاً عنه الحرام بعصبية، وشاتماً الشخص الذي وجد نفسه في حلمه. يحطّ روبه عليه ويلبس شحاطته ويتوجه إلى جاره. برائحة فمه، ومن دون أن يمشط شعره حتى. يطرق الباب. يفاجأ الجار به. فيبادر حسام على فور بسؤاله: «هل يمكنك أن تخبرني بماذا حلمت الليلة الفائتة؟».

لم يكن حسام مقرّباً من أيٍّ من جيرانه. علاقته بهم رسمية. لذلك، كان من غير المعتاد أن يسألهم مباشرة عن أحلامهم، وهو لم يتبادل حديثاً وإياهم قط. لم يكونوا يتكلمون عن أحلامهم، لذلك كان حسام يروي لهم الحلم. فيفاجأون. وفي خضمّ المفاجأة ينهال عليهم حسام بالضرب وهو يقول: «هذا ضد الخصوصية. هذا ضد الخصوصية». وأحياناً، يأخذ يوم عطلة ويسافر بالباص كي يصفّي حسابه مع الحالم.

جرَّب كل الطرق لتفادي أحلام الآخرين. إلا أنّ أياً منها لم يُجدِ نفعاً، إلى حدّ أنه تسجَّل في نادٍ للرماية، علّه يحمل مهاراته الجديدة إلى أحلام الآخرين ويقتلهم من طريق الخطأ. «الأخطاء واردة، حتى في الأحلام. أليس كذلك؟»، يقول.

ورغم أنه لم يحصل على رخصة سلاح، تمكن من اقتناء مسدس، «كولت». وصار يحمله معه دائماً أينما ذهب. إلى السوبرماركت أو العمل. بل حتى وهو نائم، يدسُّه وراء ظهره، آملاً أن ينتقل معه إلى الحلم. «هل تنام والمسدس على خصرك؟»، سألته. وعندما أجاب بـ«نعم»، ذُعِرْتُ. فقد خشيت أن يستعمله ضد واحد من أولئك الذين يحلمون به.

وحين لا يكون بإمكانه معرفة الشخص الذي رأى نفسه في حلمه، كان يتصل بي متوتراً. كما يحدث الأمر حينما نرى في الحلم أشخاصاً لا نعرفهم. ثم يبدأ يشك بالجميع. بمن فيهم أنا. «لماذا لا يكون الحالم أحد أولئك الذين أعرفهم؟ ربما أنتَ؟».

«أنا؟»، أقول مذعوراً وأنا أحدق إلى لمعان مسدسه الفضي. «حتماً لا. ليس

أنا. ثق بي. بشرفي، لم أرك في أيٍّ من أحلامي. ماذا دهاك؟ ألسنا صديقين مقربين؟».

في غرفته، تجد رسوماً تقريبية لأولئك الذين حلموا بحسام والذين لم يرهم في حياته قط. كان مهووساً بمطاردتهم، حتى لو كلفه ذلك ما تبقى من حياته. «أشخاص لا يعرفونك، ولم يروك قطّ في حياتهم، لماذا يستدرجونك إلى أحلامهم؟ ما الذي يريدونه منك؟»، يقول.

كانت حالته الذهنية تتدهور. ولم يكن بمقدوري فعل شيء لمساعدته. أقلقني الأمر. صرت أخافه. ماذا لو ظهر حسام بدور شيء تافه في أحد أحلامي، من دون أن أكون قادراً على تمييز ذلك؟ كنت أعرف أنه يُعوِّل عليّ لكي أمنحه دور الشخصية الأساسية في أيٍّ من أحلامي. في حلم واحد على الأقل. لكنه لم يبح بذلك أبداً. فرغم كل ما تعرض له، احتفظ حسام باعتزاز كبير بنفسه. واعتزازه بنفسه، ربما، هو ما جعله ينزعج لتطفل الناس على كيانه أثناء نومه.

إلا أنني كان لديّ ما يكفي من المتاعب اليومية التي أغرقت رأسي كما لو أنها جردل دهون. وحين لم أكن أتذكر أحلامي، كنت أتجنب رؤيته أو حتى الاتصال به. لم أكن أريد المجازفة. ماذا لو كنتُ قد حلمتُ به ولا أتذكر؟ وحين كنت أسيء إلى شيء ما في حلم، كنت أخشى أن يكون ذلك الشيء حسام نفسه. أظلّ متوتراً، فيسألني متحمساً: «قل لي إنك أصبتَ أنتَ أيضاً بعارض أحلام الآخرين». «لا. ليس بعد»، أقول.

ثم كانت النهاية. حين رأى نفسه في حلم الصبي المعوق ذهنياً، ابن الجيران.

كان الصبي ابناً لعجوزين، لم يُنجبا غيره، وقد توقف عقله عن النمو حين كان في الثالثة من عمره. لذلك، كان له عمر رجل بالغ، لكن عقلُ طفل. أما أبواه فظلا يكبران. لم يتخيل حسام أن يجد نفسه في حلم ذلك الصبي، لكن هذا ما حدث.

الصبي كان جالساً على كرسي مُخرج الأحلام. وكان يعطي تعليمات لم يفهم منها حسام شيئاً، لكنه سمح لحسام بأن يستقل مسدسه معه. وكان حسام يلاحق زوجته السابقة أمام الطفل المعوَّق. زوجته لم تنجب أطفالاً. وحسام أطلق عليها النار، إلا أنه لم يصبها. لكن ما حدث هو أن رصاصة أصابت خطأً الصبي المعوق، في خاصرته. استيقظ حسام مذعوراً واتصل بي على الفور. قال: «لقد أطلقتُ النار على الصبي المعوق وأرديته قتيلاً. لكن ذلك حدث من طريق الخطأ». كان يتكلم كما لو أن الأمر حصل بالفعل في الواقع. فهدأتُ من روعه، واتفقت معه على أن نلتقي في المقهى لنشرب القهوة. وانتظرته. لكن حسام لم يأت مباشرة، بل تأخر حوالى ثلاثين دقيقة. لم تكن عادته أن يتأخر، بل غالباً ما أجده بعد كل حلم سيع يراوده، وقد سبقني إلى المقهى وجلس متوتراً. عندما وصل أخيراً، كان وجهه مصفرّاً. كما لو أن أحداً دلق عليه مثانته. «ماذا هناك الآن؟»، سألته، كما لو أنني أسأل طفلاً مدللاً. «الصبي، مات بالفعل. سمعت والديه العجوزين ينتحبان. استيقظ بآلام رهيبة في كليته، كان يئنّ بشدة، والعجوزان البطيئا الحركة لم يستطيعا فعل شيء من أجله. وسرعان ما توفي. «لقد مات لأنني أطلقت النار عليه. لقد استقرت الرصاصة في المنام في خاصرته»، قال. حاولتُ إقناعه بأن ذلك مستحيل. لا يمكن أن تكون رصاصة أطلقها في منام قد أدت إلى وفاة الصبي حقاً. ثم سلم نفسه إلى المخفر. إلا أنهم لم يأخذوا بشهادته. بدل

ذلك، حولوه إلى مستشفى تخصصي للأمراض النفسية والعصبية. وكان عليّ ملازمته والتوقيع على أوراق دخوله وفترة علاجه.

لم يعد حسام يشعر بمودة تجاه أحد، وفقد الغرامات القليلة التي شكّلَتْ حسّه الاجتماعي. لكنه في المستشفى، صار صديقاً طيّباً للمجانين. كانوا يتحلقون حوله دائماً، ولم يعد يشتكي من مسألة الأحلام، بل إن أحلام المرضى النفسيين راقت له. ثم طلب مني أن أهرِّب له مسدسه الكولت. «مستحيل. هل تنوي ارتكاب جريمة؟»، سألته.

«لا. منذ أيام وأنا أحلم بنفسي. بي. أجد نفسي طفلاً، طفلاً صغيراً يحلم بي. هل فهمت قصدي؟ أكون شخصين في الحلم. الطفل الذي كنتُه في السابق والرجل البالغ الذي يتحدث معك الآن. لا أعرف مَن الكومبارس في حياة الآخر، البالغ أم الطفل. لكن المؤكد هو أن الطفل هو الذي يحلم، وليس أنا».

«وماذا تنوي فعله بالمسدس؟»، سألته.

«سأطلق النار على الطفل حتى أرديه قتيلاً. كما فعلت مع ابن العجوزين. وبما أن الطفل سيموت، فهو لن يستيقظ، ما يعني أنني لن أخرج من الحلم. سأشرف على جنازته في الحلم».

«هذا يكفي حسام. كفى. عليك أن تخرج من هذه الدوامة، أو ما تدعيه. هل تظن أني أصدِّقك؟ لقد سئمت. أنا أيضاً لدي أمور تشغل بالي. وهي ليست أحلام على الإطلاق. بل وقائع، شجارات، ودائنون. إذا بقي الحال هكذا، فسأضطر إلى رهن أصابعي حتى». كان هذا آخر ما قلته له. وقد بدا حسام مرتاحاً. غادرتُ المستشفى وسمعته يقهقه. فقد فَهِمَ.

ظل حسام يحلم بنفسه والطفل الذي كانه معاً. وأنا لم أهرّب له مسدسه الكولت. حسام لم يستعمل في الحلم مسدساً، بل مدية. سلّمها له صديق. تناول حسام المدية وتقدّم بهدوء من الطفل الجالس في كرسي مبرمج الحلم والذي أخذ يقول: «لا يعجبني هذا». كان يمسك بكيس أفندي لم يتسنّ له تذوّق حبة منه. وصل حسام إليه، وبينما أدخل يده في الكيس متناولاً حبة أفندي، غرز باليد الأخرى المدية في عنق الطفل. الطفل انتفض كما لو أنه دجاجة ذُلِقَ عليها ماء ساخن، ثم خرَّ ميتاً عن الكرسي دون أن تحين له الفرصة لأن يستيقظ من الحلم، فيما لاذ جميع الموجودين في الحلم بالفرار، وعلى الأرجح استيقظوا جميعاً من مناماتهم في تلك اللحظة. هذا ما حدث بالضبط. بالحرف. أؤكد لكم. أعرف كل التفاصيل: الإضاءة، طريقة اختناق الطفل ولفظهِ روحه، لون مقبض المدية حتى. أعرف كل شيء. كل شيء. حتى طعم الأفندي في الكيس، أعرفه جيداً. ذلك لأنني كنتُ هناك.

أكواريوم

سمّيناه منير. لكنه لم يكن أكثر من كتلة دم متخثرة في الرحم. الطبيبة رأته حَبَلاً وحسمتِ المسألة. وقد عزز الأمر انتفاخ بطن زوجتي وغياب دورتها الشهرية وشعورها بآلام في المبيض. لم يكن انتفاخ بطنها ناتجاً من حمل، بل من مزيج من التهابات في الرحم سببها خلط عدة أدوية لمنع الحمل ببعضها. من بينها تناولها لثلاث مرات متتالية حبة «إلّا وان» التي تبلغ تكلفة الواحدة منها ثلاثين دولاراً.

لم يكن قد مضى على تعارفنا أكثر من أسبوعين، ولم يكن في نيتنا أن نمارس الجنس بهذه السرعة. لكن الجنس أنقذ علاقتنا. فزوجتي ألحّت على أن أريها قضيبي. كانت تحبني كثيراً، إلا أنها خشيت أن يكون قضيبي رفيعاً. لم يعنِها الطول. السماكة فقط. «إن كان رفيعاً، فلن يكون بإمكاني الزواج بك». كان

لقضيبي الكلمة الفصل في علاقتي بزوجتي، لا مشاعري. كنا في السيارة، وتوقفنا على الأوتوستراد. تحت حراسة عواميد الإنارة المطفأة، العمياء. لم يكن ممكناً في السيارة تشغيل لمبة السقف الصغيرة. ولأن زوجتي لم تستطع رؤية قضيبي، فقد أخذت تتحسسه بيدها، ثم قالت: «أعتقد أن له شكل صنف من المشروم». لم أعلم لوهلة إن كان ما قالته ذمّاً بقضيبي أو مديحاً. لكنها لم تعطني فرصة للسؤال. فقد انقضّتْ عليه بفمها، ما جعلني أتفاجأ وأقذف. فتشاجرنا. نزلتْ زوجتي من السيارة وأوقفتْ تاكسي وانصرفتْ. ثم كتبتْ لي رسالة تلفونية تقول فيها: «كل شيء بيننا over. علاقتنا انتهت بنفس السرعة التي قذفتَ فيها». كان عليّ إقناعها بممارسة الجنس. «في السرير ستكون الأشياء مختلفة»، كتبتُ لها. وهكذا كان.

مارسنا الجنس إنقاذاً لعلاقتنا العاطفية. يومياً لمدة عشرة أيام. في الأيام الثلاثة الأولى تناولتْ زوجتي ثلاث حبات «إلاّ وان» على التوالي. ولاحقاً، أخبرتني عن صديق لها بريطاني، كان له عضو رفيع جداً. «كان يشخن قلم الحبر BIC». كان يستعين باثنين من أصابعه لمساندة قضيبه. يلفّهما على قضيبه ويدخلهما معه. وزوجتي تشعر بأنه قد دخل بين فخذيها برغي من لحم ودم. كان في كل مرة يبدّل الإصبعين. رجل متمرس على ذلك. وفي بعض الأحيان يبكي. يتوقف عن المضاجعة فجأة ويدخل في مونولوغ طويل خلاصته: حبذا لو كان بإمكانه تبديل عضوه لا أصابعه. قالت لي إنه تطوع في إحدى الجمعيات الإنسانية في العراق ولم تعد تعرف عنه شيئاً.

منير لم يكن اسماً عصرياً. أنا وزوجتي كنا نعلم ذلك، وقد اخترناه أولاً على سبيل التندر، مفترِضَيْن أن الجنين ذكر. ثم صدَّقْنا أنه ذكر. شخصية كتلة الدم المتخثرة ذكر. هذا ما خلصنا إليه. ثم توطدت علاقتنا به. حتى أنني

كنت أحياناً استيقظُ في الليل لأمسِّدَ بطن زوجتي بحركات دائرية باتجاه دوران عقارب الساعة. لأطمئن إلى أن منير يبيت بسلام. لكني لم أكن أشعر بذلك. وفي الصباح أول ما تستفيق، كانت زوجتي تعانقني قائلة: «حبيبي، شكراً لك». فأسألها «علام؟». «لأنك أب طيب». «أنا؟». ثم أفهم أنني فعلتُ ما فعلته وأنا مُرَوْبس. لم يحدث الأمر مرة واحدة فقط، بل تكرر خمس أو ست مرات إلى أن صرت مضطراً إلى تناول نصف حبة ليكزوتانيل كي لا أستيقظ إطلاقاً في الليل للمس منير.

زوجتي خلُصَتْ إلى أنني لن أكون أباً صالحاً إلا إذا كنتُ مروبساً. قالت ممازحة: «وفي هذه الحالة لا مانع لديَّ من أن تُربي الأطفال، كل أطفالنا، وأنتَ مروبس». لم ترق لي المزحة وقتها. لكني الآن وبعد مرور سنوات، أجد نفسي بالفعل مستعداً لتربية كل أطفالنا وأنا مروبس، أقصد أطفالنا الذين لم يجيئوا، ولن يجيئوا قط.

منير، كتلة الدم المتخثرة، لم يُقَدَّرْ له البقاء. كان علينا أن نخرجه من رحم زوجتي قبل يوم واحد من الزفاف. ذلك أن وجوده، ولسبب ما، كان له علاقة بازدياد انتفاخ بطن زوجتي، ما قد يعد فضيحة. إلا أننا ترددنا. تجادلنا مراراً. الطبيبة نفسها لم تكن متأكدة ما إذا كانت الكتلة الغامضة جنيناً أو مجرد تخثر دموي. زوجتي اعتبرتْ أننا لا يحق لنا اقتلاع طفل من مكان إقامته. أما أنا، فعلّقْتُ ساخراً: «طفل؟ إن أهميته في الوقت الحالي لا تتعدى أهمية الدم الذي ينزل من الأنوف أو يرافق البواسير».

حاولنا أخذ مشورة جمع من الأصدقاء المتزوجين، إلا أنّ أيّاً منهم لم يكن قد خَبر غموضاً في رحمٍ كهذه. لكن الطبيبة حسمت المسألة

باتصال هاتفي. كان ذلك في الساعة الحادية عشرة ليلاً. قالت غاضبة: «أنا لا أتحمّل مسؤولية. بقاؤه ملتصقاً بجدار الرحم قد ينتج سرطاناً». وأقفلتِ الخط.

في تلك الليلة، لم أتناول أي ليكزوتانيل. وبالفعل، أخبرتني زوجتي صباح اليوم التالي، ونحن نرتدي ملابسنا للذهاب إلى المستشفى، بأنني استفقتُ ليلاً – مروبساً طبعاً – ورحت أمسّد بطنها بحركات دائرية. «حتى أنك بكيتَ»، أضافتْ. إلا أنني لم أعلّق على الموضوع، بل حاولتُ السير بمحاذاته كما يحدث عندما يسير المرء بمحاذاة شبح أحمر صغير قفز للتو من قنينة حليب في يد طفل. فحاججتها قائلاً: «سأسألك سؤالاً واحداً: هل تستمتعين بالجنس معي؟»، ثم مقاطعاً إياها وهي تهزُّ رأسها بالإيجاب: «وأنا أيضاً أستمتع به وأحبّه. سيكون هناك منير آخر حتماً، وسنسميه منير. وما أقوله في غاية الجدّية».

احتفظنا بمنير في أنبوب. شعرتُ وأنا أنظر إليه للمرة الأولى داخل الأنبوب بأنه منهك. كان ذلك مباشرة بعد العملية. الطبيبة أثناء العملية لم تستطع لجم انفعالها وهي تقشط كتلة الدم عن رحم زوجتي، فقالتْ «yes» صغيرة وعيناها مغرورقتان بالدموع، مطمئنةً إلى أنّ ما يستلقي على المشرط الذي بين يديها ليس جنيناً. قالت وهي تسلّمنا الأنبوب: «إنها مجرد كتلة دم. ويمكنكما تَلْفَها بأية طريقة ترياناها مناسبة. أمعِنا النظر ملياً وستتأكدان». بصراحة، لم أستطع تمييز الأمر، فأنتَ لن تستطيع أن تُميّز بين كتلة دم وجنين في أولى أولى أطوار نموّه إلا بالشعور. وشعوري كان أنّ كتلة الدم تلك المعقودة ببعضها بإحكام

في الأنبوب، هي منير. لكني لم أُظهر شيئاً لزوجتي. كنت محبطاً تماماً. أما هي، فأغمضت عينيها ونامت على المقعد الأمامي في السيارة ولم تنبس بكلمة. ألقيتُ بالأنبوب في العلبة التي نحفظ فيها الـ«سي دي» في السيارة وشغّلتُ المُحرّك وانطلقنا.

لا أتذكر أنني فُتِنْتُ بكتلة دم متخثرة من قبل. ليس قبل منير. فأنتَ قلما تجد كتلةَ دم متخثرةً، ساحرة أو فاتنة. وكتل الدم التي نشاهدها في التلفزيون عادة ما تكون قد تخثّرتْ في لحظة تعاسة معينة. ولأكون موضوعياً مئة في المائة، حتى منير، من حيث الشكل، كان قبيحاً. ولم يفرق في تكوينه، عن أي كتلة دم أخرى مأخوذة من ساق أو معدة أو بلغم حنجرة. وفي جنة كتل الدم المتخثرة، كنت سترى منير يمشي تائهاً. ليس فيه ما يميزه. ولو رفع يافطة تقول: «أنا مستخرج من رحم»، فإن أحداً من أقرانه كتل الدم المتخثرة، لن يصدّقه. لكن ما فتنني فيه هو أنه كان نقياً. لا أعرف كيف أفسّر المسألة.

منير كان لديه بريق. كاريزما. كلما نظرت إليه في الأنبوب، كنت أجده مَرِحاً. كما لو أنه نسرة مأخوذة من الكبد. قطعة سودة طازجة جاهزة للشواء في حفل باربكيو. كان لونه أحمر قانياً. صافٍ، كأنه لم يتعرض للهواء أو بكتيريا الرحم قط.

هذه القصة حدثت قبل ثلاثة وعشرين عاماً، عندما كانت زوجتي لا تزال في الخامسة والعشرين من عمرها، وأنا في الثلاثين. تصوَّرنا في النهاية أنّ إزالة كتلة الدم المتخثرة سيكون سهلاً، إلا أن الطبيبة اضطرَّتْ إلى فتح شقّ في بطن زوجتي وقشط منير الذي كان ملتصقاً بجدار الرحم بعناد.

هو الآن يقبع في محلول كيميائي شبيه بالكلوروفورم. بقي فترةً في أنبوب صغير في الصالون. ولا أحد كان يلاحظ أنه كتلة دم، وأنّ له اسماً هو منير إلا إذا أعلنا بأنفسنا عن الأمر. لأنك لا تجد أحداً يعرض كتلة دم متخثرة في صالونه كما لو أنها آنية نحاسية أو فخارة أو صحن مُشترًى من محل سياحي. رغم أن بعض أصدقائنا تمنّوا لو أن بمقدورهم الاحتفاظ بشيء من أقربائهم الذين قضوا في انفجار أو حادث سير أو فُقِدَ أثرهم في الحرب. شيء من بطة ساق، أو طرف إصبع، أو حتى ظفر أو كاحل قدم. في الصالون، أحطنا منير بكاموفلاش من أنابيب مماثلة تحوي ماءً وقطعاً بلاستيكية زرقاء وحمراء وخضراء لا قيمة لها. كل أسبوع كنا نُغَيِّر له المحلول الكيميائي. وهي عملية دقيقة ومرهقة. كما لو أننا نغير له حفاضه وملابسه.

وفي مرحلة لاحقة، علمنا أن الأنبوب لم يعد لائقاً به، فنقلناه إلى مستوعب أكبر: أكواريوم. الأكواريوم كان كبيراً. وعاء مصمم لحفظ سمك السلمون. وضعناه في صدر الصالون. بدل تلفزيون البلازما ٤٥ إنش الذي اشتريناه قبل سنوات لمشاهدة مباريات كرة القدم أحياناً، والأفلام أحياناً أخرى، بما في ذلك البورنو. وعليّ القول إن رائحة المحلول الكيميائي، بيئة منير، تفوح منه، رغم إحكامنا غلقه جيداً. وهو ما جعل الأصدقاء وأفراد العائلة مُقِلّين في زياراتهم لنا. أحياناً نضطر إلى وضع كمامات أو نُبقي الشبابيك مفتوحة، سواء كان الطقس مشمساً أو ممطراً، أو كان هناك إطلاق رصاص في الخارج.

في الثامن والعشرين من آب القادم، يزيد عمر منير سنة – عيد ميلاده

يصادف الثامن والعشرين من آب من كل عام – فنقيم حفلة. اعتدنا ذلك منذ أن كان منير في الثانية من العمر. تحديداً منذ علمنا أن رحم زوجتي عُطبَتْ جراء العملية ولن تستطيع حمل أجنّة بعد الآن.

كل عام نعزم أطفالاً عبر الإنترنت، شرط أن تكون أعمارهم في عمر منير تماماً. نكتب الإعلان التالي: «إذا كنت من مواليد الثامن والعشرين من آب، فأنت مدعوٌّ للاحتفال بعيد ميلادك في بيتنا مجاناً. لا تنسَ دعوة أصدقائك وأقاربك. العنوان: ....». وهكذا يجتمع كل الأطفال المعازيم في بيتنا. أهاليهم وأصدقاؤهم أيضاً. نقدم لهم هدايا شكليّة ونقطّع لهم الكاتو ونغني لهم «هابي بيرث داي تو يو». على مرأى من منير المُلَصَّق على زجاج الأكواريوم الأمامي كأنه يتفرج بأسىً. وحين يسألنا أحد الأطفال عن هذه «اللطخة» مشمئزّاً، ولا يمكننا لومه بالطبع، كنا نخبره الحقيقة. كنا نسمع بعض الأهالي يهمسون أشياء من قبيل «لا بد أنهما مختلان عقلياً. فهما يربّيان كتلة دم في أكواريوم». لكن هذا ما اتفقنا عليه أنا وزوجتي. أن نجاوب الأطفال بالقول: «هذا ابننا منير. ولقد دعوناكم إلى بيتنا لأن اليوم عيد ميلاده أيضاً». ثم نطلب من الجميع الغناء لمنير كما غنى لهم من داخل الأكواريوم. «هابي بيرث داي تو يو. هابي بيرث داي تو يو. هابي بيرث داي تو منير. هابي بيرث داي تو يو» نغني والأطفال المُربَكون لوجود كتلة دم متخثرة في أكواريوم لسمك السلمون.

هذا ما كان يحدث عادة في الثامن والعشرين من آب من كل عام. حين كان لا يزال باستطاعة المعازيم رؤية منير داخل الأكواريوم. أما الآن فلا. ذلك أن منير تعرض لمشكلة. لم يعد بالإمكان رؤيته. ظننا في البدء أنّ الأمر

مجرد عارض. لو كان منير طفلاً مكتمل النمو، لتمكنّا من إيجاد علاج له بالتأكيد. لكن، ولأنه لم يكن سوى كتلة دم متخثرة، فقد تعذر ذلك. كيف يمكن المرء إنقاذ كتلة دم متخثرة من التقلّص؟ هذا ما حدث. فمنير راح يتقلّص.

بدأ الأمر قبل بضع سنوات. أخذ يفقد كل يوم جزءاً ما منه. بضع خلايا. في البداية لم نلاحظ شيئاً. إلا أننا ذعرنا حين قال أحد الأطفال المعازيم: «منير السنة الفائتة كان أكبر حجماً»، مُظهِراً لنا صورة لمنير على هاتفه الخلوي.

استمرّ فتانا على هذه الحال حتى لم يتبقَّ منه خلية دم واحدة. لم يكن باستطاعتنا أنا وزوجتي فعل شيء. استقدمنا أطباء واختصاصيين لمعاينته، غير أنّ هؤلاء أبدوا عجزهم. كان جوابهم واحداً: «هذا ليس طفلاً. هذه كتلة دم متخثرة. هل تريدان أن أجد علاجاً لكتلة دم متخثرة؟». وهكذا استسلمنا. ولم يكن أمامنا إلّا أن نجرب الطبَّ النفسي. استدعينا طبيباً نفسياً معروفاً إلى بيتنا. وشرحنا له المسألة. «هل تظنون أن الطبَّ النفسي قادر على معالجة إحباط كتلة دم متخثرة؟»، قال هازئاً بخبث وهو ينظر إلى الأكواريوم. ثم قررنا أن نذهب بمنير إلى البرية. في الأكواريوم، لا بد أن يكون منير قد اكتسب طبيعة حيوانية.

قدَّمتُ استقالتي من عملي، وهو ما فعلتْه زوجتي أيضاً. بعنا شقتنا الصغيرة بأثاثها ونقلنا ما نحتاجه من أوانٍ وموادّ أولية ومعلبات في سيارتنا، يتبعنا «بيك أب» مخصص لنقل الألواح الزجاجية حمل على ظهره أكواريوم منير غير المرئي الآن. بعيد وصولنا، كنا منهكَيْن. وضعنا الأكواريوم في العراء، تحت أشعة الشمس، أمام حِرام فرشناه على العشب استلقينا فوقه.

كان الطقس جميلاً، ولم يكن يحيط بنا سوى الأصوات الناعمة لذلك الصراع المعروف بين الحشرات والعصافير، والذي لا يعيره أحد اهتماماً. لكننا، ونحن ننظر إلى الأكواريوم آملَيْن أن يبدأ منير بالتكوّن من جديد، غفونا. وأنا نائم، حلمتُ بأنّ حيوانات مفترسة أتتْ، أحاطت بالأكواريوم وأخذت تشرب المحلول الكيميائي الذي أمضى فيه منير سنوات حياته، وأنني حاولتُ إبعادها بأن رحتُ أقذفها بمعلبات الطعام غير المفتوحة بعد. بينما أخذت زوجتي ترشها بقناني الماء التي أحضرناها معنا. الغريب في الأمر أنّ زوجتي حلمت بالقصة نفسها. ناقشنا الألوان والتفاصيل، وحتى أصوات الحيوانات، ووجدناها متطابقة. لم يكن هناك من فارق واحد بين الحلمين. قالت لي: «من المستحيل أن يكون هذا مجرد حلم. إنها رؤيا». اقشعرت أبداننا. حاولنا على الفور حمل الأكواريوم والفرار به، إلا أننا لم نستطع. لم نستطع حتى زحزحته. كيف أصبح الأكواريوم فجأة ثقيلاً هكذا؟ لم نلقَ إجابة عن هذا السؤال سوى أن منير لا يريد الانتقال من البرية. هذا ما جعلنا نبقى. وليس أمامنا، لبقية حياتنا، سوى أن نتناوب على حراسة الأكواريوم، ليل نهار، حفاظاً على منير الذي لم نعد نأمل أن يكتمل ليصبح ذات يوم طفلاً، بل أن يعود إلينا، كما عهدناه دوماً، مجرد كتلة دم متخثرة. نحن لا نريد أكثر من ذلك.

شخصية أخرى

سأفترض أنّ لي شخصية أخرى. شخصية لا أعرف عنها أيَّ شيء هذه اللحظة. لكنها ستكون شخصية قليلة الكلام. ولو صادفتْ في الشارع أو الممر رجلاً له شخصيتي الحالية، فستهرع نحوه وتساعده.

لا فكرة لديَّ عن نوع التجارب التي ستكون لها. كل ما يمكنني فعله من أجلها، هو أن أفترض أيضاً أنّ لها عمري. ستة وثلاثون عاماً. وسأفضِّل لو كان الركض من هواياتها. الركض في الملاعب. الركض في باحات المدارس. الركض في محال الألعاب. في الحفلات. في متاجر الثياب المستعملة. شخصية لا تفعل شيئاً سوى الركض. من مكانٍ إلى آخر. ولها ساق واحدة فقط. ترتاح عليها. أما الركض، فتمارسه بالساق الأخرى، المفقودة. شخصية تتخيل أنّ لها ساقاً أخرى تركض عليها. لهذا ستكون

شخصية لا تركض. شخصية يمكن أن تفعل أيَّ شيء عدا الركض. مع ذلك، فإن تصميمها متقن بحيث تستمر مئة عام.

وككل الناس، يكون لها أحلام. كصيد السمك وقوفاً على ساق واحدة أو مساعدة رجال الإطفاء في الإمساك بخرطوم المياه. أو حتى الانضمام إلى حزب وإطلاق النار على عدوّ ما. وعندما سيُلقى القبضُ عليها، على شخصيتي – لأنّ هذا ما يحدث عادة في الهزائم – لن يكون بإمكانهم فسخها نصفين، لأن لها ساقاً واحدة فقط، ولأنك كي تفعل هذا بنجاح أنتَ بحاجة إلى ساقين وسيارتين تنطلقان وتسيران عكس بعضهما، فيطلقون سراحها. لكن التجربة تؤثر فيها عميقاً، فتصير تركض بساقها، وترتاح على ساقها المفقودة. وفي إحدى الليالي تطلق النار على رجال الإطفاء الذين يرضخون لها ويسلّمُونها خرطوم المياه. كما تصيد السمك للأعداء وهؤلاء يشكرونها بحرارة مستذكرين وإياها الأيام السابقة.

من سماتها الأثيرة، أنها تكذب طوال الوقت. تكذب لتبقى بجانب الفتاة التي أحبها. والفتاة التي أحبُّ تستظرف هذا، وتقع أخيراً في الحب. ليس بي، بل بشخصيتي الجديدة. لأنها وجدتْ أخيراً شخصاً كاذباً بالقدر الذي هي عليه. من قصصها المحببة، أن الانفجار الذي أودى بحياة العشرات، لم يتمكن منها، رغم قربها من السيارة المفخخة. لأن الشظية عبرتْ من تحت البتر وأكملت طريقها نحو ضحية خلفها. وهذا منطقي، لأن احتمالات إصابة شظية بدبّوس ضئيلة جداً. أجل، فأنا في لحظة الانفجار سأكون قد بدّلتُ شخصيتي مرة أخرى، انتقاماً من الفتاة وشخصيتي الجديدة، اللتين هربا معاً. سأكون قد افترضتُ أنني مجرد دبوس، وأن الضحية التي كانت

خلفي هي شخصيتي الأولى، وقد قضتْ في الحادث. والدبوس تصميمه متقن بحيث يظل دبوساً لمئة عام. لكنه بسبب الصدأ والرطوبة في المكان الذي حُفِظَ فيه، صار له رائحة الجبن. وأن الرائحة قوية للغاية، بحيث إنها اجتذبتْ قطّاً صغيراً جائعاً. والقط الصغير الجائع ابتلع الدبوس. وأكثر من ذلك، توارى تحت سيارة وبدأ يصرخ من الألم. صراخ بلغة القطط. وأنّ الذي عثر عليه هو أمي. أمي العجوز. كانت عائدة من جولة في السوق. ومواء القط الصغير ذكّرها بشيء ما. شيء فقدتْه. شيء لا تستطيع أن تدركه الآن بدقة. لأن مواء القط يشوش على كل شيء. سأفترض أنّ أمي حملت القط إلى البيت، لكنها لم تتمكن من إدخاله لأن أبي يكره القطط، فقررت إبقاءه في الكوريدور، وأن تعالجه أيضاً. وأنها مدت إصبعها إلى جوف القط الصغير، لكنها لم تعثر على شيء، فأنزلت إصبعها قليلاً في بلعومه (فعلت ذلك دون مشقة لأن أصابعها رقيقة ونحيلة)، ثم قليلاً أكثر، حتى عثرت عليّ. عندئذٍ، هدأ القط تماماً. استرخى وأغمض عينيه ثلاثة أرباع إغماضة. لكنني، وفي تلك اللحظة، ولكوني لا أزال دبوساً يتذكر تماماً أنّ له شخصية دبوس، فقد دخلتُ في إصبع أمي. بحيث لم تعد أمي تستطيع إخراج إصبعها من جوف القط الصغير. لكنها لم ترد الصراخ، أو لفت انتباه أبي العصبي المزاج الذي يشاهد مسلسلاً في الداخل، لأن الألم ذكّرها بشيءٍ ما. شيء فقدته، لكنها لا تستطيع إدراكه. لأنّ القط مات. وموت قط صغير مختنقاً بإصبعك التي في جوفه من شأنه أن يشوّش على كل خساراتك.

المنبّه

لا أعلم ما الفائدة من ذلك الحلم. لكنني كنتُ فيه مشلولاً. وفي الأحلام، لا يحدث أبداً أن تقفز نسبة ذكاء المرء فجأة فيبتكر مثلاً، وقبيل استيقاظه، ذلك الكرسي التكنولوجي الذي ينطق باسمه، فيما هو يدمعُ موافقاً على كل ما تفوّه به الكرسي. لذلك فإن وُجدتَ في صف مليء بالتلاميذ الكسالى وغير المبالين، فلن يكون لك أي فعالية. ذلك أنك مشلول بالكامل. لا يمكنك حتى التكلم ولا حتى إخراج حشرجة أو تحريك لسانك، ولا مدّ يدك لإيقاف المنبّه الذي لا تعلم أيَّ التلاميذ الأوغاد أولئك وضعه في الحلم على الطاولة المخصصة لك. ورغم أنّ المنبّه صغير، وفي الحالات العادية تستطيع إخراسه بصفعة منك وأنتَ تصرخ به قائلاً: «كفى!»، إلّا أن رنينه المتواصل يُسمَع في جميع أرجاء المدرسة. الأمر يسبّب بلبلة عظيمة في

الصفوف الأخرى، فيسود الشغب، ويمتدّ حتى إلى غرفة الأساتذة وكشك الدكانة أيضاً. لكنّ المدير، مراع الآن تماماً لوضعك الاستثنائي. شأنه شأن بقية الأساتذة. لذلك، لن يدخلَ أحد الصف الآن ويطلب منك أو من أحد التلاميذ إيقاف المنبّه، لأنّ ذلك سيحطِّمُك معنوياً، لكونك الزميل الوحيد المشلول في المدرسة.

بالنسبة إليهم، أنت غير مدرك لشللك. لذلك، يفسحونَ لك المجال بأن تمارس مهنتك كأستاذ، كأي أستاذ، كما لو أنّ أمراً سيئاً لم يحدث لك قط. ولا بد أن واحداً منهم يقلُّك بسيارته كل يوم إلى المدرسة. لكن لا أحد منهم يصارحك بالحقيقة، فقد يفاقم ذلك من وضعك فتُصاب على أثر الصدمة هذه بالعمى كذلك. وهم لا يريدون المجازفة، لأن بصرك هو كل ما بقي لك. لكن التلاميذ على ما يبدو، سئموا. لذلك يتصرفون بشكل صريح أكثر. ويبدو أنّ المنبّه تعبير عن احتجاجهم. تلميذة واحدة تنظر إليك بشفقة بالغة. بحنان. وتوشك أن تنهض عن مقعدها وتتجه إلى طاولتك وتوقف المنبّه. وأنت تشجّعها بضربات قلبك السريعة. بحركة بؤبؤيك. وبنقطة لعاب تسيل ببطء على ذقنك. لكن الصغيرة لا تجرؤ. فتتراجعُ مخافة أن تجرحَ مشاعرك. فتدير رأسها فوراً إلى الجهة أخرى وتنغمس في ما يفعله التلاميذ الآخرون الذين يتجاهلونك بالمرة ويتصرفون كما لو أن لا منبّه على الإطلاق، وكأنك تتخيل كل هذا أو تحلم به. ثم يحدث ما كنتَ خائفاً منه، ما كنتَ تخشاه بالتحديد. وأنا لا أعني أن أكون قد تبوَّلتُ تحتي أو تغوَّطتُ في ثيابي دون أن أشعر لكوني مشلولاً، أو أن يقوم أحد التلاميذ مثلاً في هذه اللحظة بصفعي أو ركلي على خصيتيَّ، فهذا جائز حتى للأساتذة الذين يتمتعون بقوى جسدية سليمة. لا. ما عنيتُه هو المنبّه. فكما كنت أخشى،

كان المنبه موجوداً على الجانب الآخر من الطاولة. طاولة الأستاذ. أقصد الجانب الذي ينتمي إلى الواقع، إلى إقليم اليقظة. ولم يكن مسموحاً بأية حال أن أُخرِجَ يدي من نومي لأوقف رنينه، فهذا مخالف للأحلام وأعراف سيرها. وأصلاً، وبالنظر إلى حالتي البائسة في الحلم، لم أملك القدرة على ذلك طبعاً. لهذا، بقيت أنظر إليه وهو يرنّ ويرتعشُ بعنف ويرتطم بطرف الكتاب ويقع على الأرض ويتهشم، فيما أنا لا أزال مستلقياً، وبعينين مفتوحتين تماماً، على سريري في غرفة النوم. ويبدو أن شيئاً فظيعاً كان يحدث، بل وقد حدث منذ بعض الوقت، لكني لم أشعر به – عموماً، لم يكن جائزاً لي أن أشعر بأيّ شيء إطلاقاً – إذ لاحظتُ أن أمي مستندة إلى باب الغرفة تولول، لكنها لم تجرؤ على الاقتراب مني، تماماً كالتلميذة، بل تناولتِ الهاتف، كما قد يفعل الآخرون في مثل هذه الحالات، وكأنهم جميعاً ينتمون إلى صف واحد، وأجرتْ اتصالاً، إما بأبي أو سيارة الإسعاف. فيما كنت لا أزال أفكر في الحلم الذي رأيتُه للتو وأقول لنفسي: «ما الفائدة؟».

علبة مربى

يدخل بابا البيت حاملاً في يده علبة مربى صغيرة من تلك التي يقدمونها للمرضى في المستشفى التي يعمل فيها. يرفعها في الهواء. يقول: «هل ترى علبة المربى؟». أجاوبه: «لا». يقرِّب يده قليلاً من اللمبة الوحيدة في سقف الغرفة. «والآن؟». «لا. لا أرى شيئاً»، أقول.

«ربما ضوء اللمبة ضعيف».

«ربما»، أجاوبه.

يدحرج بحركة تدعو للإعجاب علبة المربى، بحيث تنزل من بين إصبعيه وتستقر في راحة يده. يغلق راحة يده، بحيث تأخذ شكل مظروف. حيلة قديمة ابتكرها في مدرسة التمريض. يده الآن مظروف في داخله علبة مربى

صغيرة. يكبس مفتاح النور بزاوية المظروف، فتنطفئ اللمبة. ثم يكبس الزر مجدداً، فيشتغل الضوء من جديد.

يرفع بابا مجدداً علبة المربى في الهواء. «هل هذا أفضل؟»، يسأل.

«لا. لا أرى أية علبة مربى من مكاني»، أقول.

«اقتربْ قليلاً. أنتَ في أبعد نقطة من الغرفة»، يقول.

يقرّب يده أكثر من اللمبة. كما لو أنه سينقل علبة المربى بحيلة قديمة أخرى إلى داخل اللمبة.

أنا فعلاً بعيد عن بابا. جالس على كرسي إلى جانب النافذة. الكرسي مرتفع وحين أجلس عليه لا تطأ قدماي الأرض.

أنزل عن الكرسي وأتقدم من بابا. أقول: «بابا. هل يمكنك أن تضع علبة المربى داخل اللمبة؟ لو وضعتَها داخل اللمبة فسوف أراها».

يرفع يده أكثر. لكن، قبل أن أصل إليه، ينقطع التيار الكهربائي. تأكل العتمة بابا. تأكل يده وعلبة المربى.

يقول ممازحاً: «هل ترى ماذا يحدث عندما نضع علبة مربى داخل اللمبة؟ تنفجر. والمربى تحترق وتملأ بلونها الأسود كل الغرفة».

أبقى صامتاً، متسمراً في مكاني.

بابا أيضاً يظل صامتاً برهة، قبل أن يقول: «اذهبْ وأنزِلْ الديجانتير».

«حسناً. أنا ذاهب لأُنْزِلَ الديجانتير»، أكرر ما قاله بابا كي يطمئن.

أتقدم بخطوات ثقيلة. كما لو أن سلحفاة تتكمَّش بكل قدم من قدميَّ. أُشَكْوِكُ العتمة بإصبعي. كأنها حيوان سيتزكزك فيفتح لي بطنه. أرفع قدمي الأولى وأُسقِط في بطنه السلحفاة. أرفع قدمي الثانية وأُسقِط السلحفاة الأخرى. وأهرب.

لكن إصبعي الآن تصيبُ بابا. ينقز. تسقط علبة المربى من يده. «هل سمعتَ؟ هذا صوتها. صوت علبة المربى!»، يقول متحمساً، مموِّهاً خوفه. لكنني فعلاً لا أسمع صوت علبة المربى التي تتدحرج على الأرض قبل أن تستقر في نقطة ما.

بابا لا يتحرك من مكانه. لا يريد أن يُضَيِّع علبة المربى. رغم أن بيتنا صغير. غرفة صغيرة ومطبخ وحمام. لكن بين غرفتنا الصغيرة والمطبخ والحمّام، هناك غرفة أكبر، أكبر الغرف في البيت وبابا أجَرَها لأحد أقربائه الذي علمنا لاحقاً أنه يتاجر بالسلاح. قريب بابا يأتي بالكثير من الأسلحة والذخائر. أحياناً يقف عند باب غرفته، وبدلاً من أن يقول «صباح الخير» لبابا، يقول: «ما رأيك بهذه القطعة؟ إنها مجرد عيِّنة. قطعة سهلة الاستعمال. من رومانيا. نيشانها ممتاز. لماذا لا تستعيرها ليوم أو يومين؟ أليس لديك خلاف مع أحد؟». بابا لم يقتنِ يوماً سلاحاً. أما الخلاف الوحيد الذي لديه، فهو مع هذا القريب الذي توقف عن دفع الإيجار. لكن بابا لا يجرؤ على مطالبته به. بابا يعتقد أنّ على القريب أن يدفع له ليس إيجاراً وحسب، بل استثماراً.

بابا يحمل في يده الأخرى، اليد لا يرفع بها علبة مربى صغيرة، كيساً. في

الكيس الكثير من ورق الكلينكس. جواز سفره أيضاً. وبطاقة لمسؤول حزبي. بابا يعتبر البطاقة سلاحاً. سلاحه الوحيد. أحياناً يترك البطاقة على اسكملة قريبة بحيث يراها قريبُه بوضوح.

«بعد أن تُنزِلَ الديجانتير عُدْ من هذا الباب»، يهمس. يدخل يده في الكيس، ويقبض على البطاقة. يستدير حوالى مئتين وسبعين درجة باتجاه باب غرفة قريبه، حيث يُسمَعُ صوت تلقيم أسلحة وتفريغها. بابا لا يثق بالقريب. يسألني: «هل تظنّ أنّه في الداخل؟».

علبة المربى استقرت عند بابه.

«ربما»، أقول بصوت بالكاد يخرج من حنجرتي. أستنتج أنني أيضاً خائف.

بابا وأنا، كلانا يعرف أن القريب داخل غرفته. كان بإمكان بابا أن يستدير بزاوية تسعين درجة، بدلاً من المئتين وسبعين درجة. يخيَّل إليّ أنه أراد أن يرافقني لننزل الديجانتير معاً. إلا أنه فكر بعلبة المربى.

علبة الديجانتير في المطبخ. وعليّ لأن أبلغها أن أخرج من بابٍ فرعي في غرفتنا، باب يفضي إلى كوريدور الطابق الأرضي حيث نقيم. ومن كوريدور الطابق الأرضي، أدخل إلى البيت من الباب الأساسي، حيث يستقبلك المطبخ والحمام. يقول بابا: «أغلقْ الباب بهدوء. لا تُطَوِّل».

في البناية جراذين، وأكثر ما تحبه هو التسلل إلى البيوت في العتمة. أشقّ الباب قليلاً، وأخرج بشكل جانبي وأنا أسدّد ركلات عند مستوى أرضي، كي أخيف الجراذين، إذا كان بالفعل أيٌّ منها الآن. وأغلق الباب بهدوء

كما طلب بابا. كي لا ينزعج القريب، الذي لا نعلم إذا كان أصلاً موجوداً بمفرده في غرفته أو معه شخص آخر.

أتلمَّس حائط الكوريدور، وأصل إلى باب بيتنا الأساسي. أخرج علّاقة المفاتيح التي أحتفظ بها دائماً في جيبي. أفتح الباب، وأدخل البيت جانبياً وأنا أسدّد ركلات أرضية سريعة ومتلاحقة، لكن إلى الخلف هذه المرة. أقترب من علبة الديجانتير. ألمس المقبض وأنزله إلى تحت. لكن كهرباء الاشتراك لا تجيء. أنا الآن في المطبخ. أما بابا فلا يزال متسمّراً حيث هو في غرفتنا. وبيني وبين بابا غرفة القريب التي ممنوعٌ عليّ وعلى بابا العبور بها. والقريب يستطيع أن يصل من غرفته عبر باب خاص إلى المطبخ.

لا أستطيع التحدث مع بابا من هنا، إذ سيكون عليّ رفع صوتي. وهذا قد يزعج القريب الذي ربما يقوم ببعض الأعمال مع أحد عملائه. إما أن أعود إلى غرفتنا وأنتظر مع بابا أن تجيء كهرباء الاشتراك، أو أبقى في المطبخ مشبّكاً الديجانتير بين خطّ الاشتراك والخطّ الأصلي، أو أذهب لتسديد فاتورة الاشتراك لأنّ صاحب المولِّد الكهربائي قد يكون قطع التيار عنا لأننا لم نسدّد الفاتورة. الوقت طبعاً غير ملائم لتسديد فاتورة الاشتراك لأنها الحادية عشرة ليلاً. لا أرى بابا من مكاني في المطبخ. كما لا يمكنه هو الآخر رؤيتي. لا أعرف كم دقيقة تكون قد مضت قبل أن يخرج القريب من غرفته حاملاً قطعة سلاح لأنه شعر بالحر. لأن هذا ما يفعله عندما يشعر بالحر. يحمل سلاحه ويخرج. القريب يوشك أن يقول غاضباً: «هذه القطعة تهريب. من إسرائيل»، إلا أنه يدعس على علبة المربى. علبة المربى تنفزر وتبلِّل قدمه بدبق المشمش. فيطلق النار.

بابا لم يعد يذهب إلى المستشفى للعمل. لأنك في المستشفى لا تجد ممرضين يعملون على كرسي مدولب. لكنه يتفق مع أحد زملائه الذي يأتي له بعلب مربى صغيرة مرتين كل أسبوع. رغم أنه لا يقف. ولا يستطيع حتى دفع كرسيه بيديه. إلا أنه يرفع رأسه نحو اللمبة، عندما يراني داخلاً الغرفة. رغم أنني لم أعد طفلاً. في اللمبة أجدُ علبة مربى. «كيف فعلتَ ذلك؟»، أسأله. إلّا أنّ بابا لا يجيب. لأنه كما لا يستطيع أن يمشي أو يحرك يديه، أيضاً لا يستطيع النطق. يبتسم. أحاول أن أطول علبة المربى، لكنني أدرك أن هذا مستحيل. فاللمبة عالية. والوحيد الذي يمكنه أن يسقطها في البيت، هو قريبنا، برصاصة من مسدسه.

برداية

السرير قرب باب البلكونة. وباب البلكونة مزود ببرداية. زوجتي تحب إبقاء الباب مفتوحاً وإسدال البرداية ونحن نتضاجع. بيتنا في الطابق السابع. والهواء يلعب. الهواء يدخل من الشُّبَّاك ويخرج من الباب. يزيح البرداية قليلاً. جارنا العجوز القزم ينظر إلينا من البناية المقابلة ويصرخ: «هناك شخص ينيك في الطابق السابع». فيخرج كل الناس من بيوتهم ويقفون على البلاكين. جارنا يقول هذا بصوت عالٍ، لكن بنبرة رزينة كما لو أنه في صالون أدبي. حتى أنه لا ينظر صوبنا وهو يعلن اكتشافه.

لا شيء يوقفني عن النيك. لا أستطيع. إن توقفت يتعكر مزاجي طوال النهار وينعكس سلباً على زوجتي التي كلما مسَّتها كلمة مني تقول: «أريد الطلاق». ما يحدث في هذه الحالة هو أنني أطلب منها أن تمسك

البردايةَ وتشدّها إلى أسفل ونحن نتضاجع. وهكذا نضمن أن الهواء لن يرفع البردايةَ. لكن زوجتي عندما تجيئها الرعشة تشدّ فخذيها إلى الآخر وقبضتيها أيضاً. يصبح جسمها ثقيلاً بمقدار الضعف. وفي المرة الأخيرة شدّت البردايةَ عندما بلغت النشوة، ففكّتها وشاهد ذلكَ العجوزُ القزمُ، الذي أحسُّ أن لا شغلة له ولا عملة إلا التلصص علينا، فأعلن صائحاً: «جاء ظهر المرأة»، وتوافد الناس كالمجانين على البلاكين وراحوا ينظرون صوبنا ويطلقون التعليقات. حتى أن بعضهم قال: «والله فحل»، وأحدهم صفق بيديه وآخر صفّر.

اقترحتُ على زوجتي أن نُبقي على باب البلكونة مغلقاً بكل بساطة، إلا أنها رفضت. ولديها سبب وجيه. «عندما تشوّب يا زوجي، فإنك لا تستمر طويلاً في المضاجعة. أليس كذلك؟». هذا صحيح. والكهرباء مقطوعة أغلب الوقت في الحيّ. لذلك ليس من حلٍّ إلا أن نغيّر البردايةَ أو نغيّر الجيران.

فكرتُ في أن أهدّد القزم. أو أنتقم منه. لقد نغّص عليّ اللحظات الأحبّ إلى قلبي. لحظات مضاجعة زوجتي. وقررنا أن نغيّر البردايةَ. أن نركب بردايةً أكثر سماكة. في الوقت عينه، صممتُ على أن أزور القزم وأتحدث معه بهدوء حول المسألة.

الرجل لم يتزوج. لهذا السبب ربما هو مشغول بقصص الآخرين. لا عمل لديه. ويصله كل آخر شهر مبلغ من أحد أخوته الذين هم في الولايات المتحدة. لقد عرضوا عليه الإقامة هناك، لكنه رفض. يقول إنه يحب هذه المدينة كثيراً. ومنذ أن اكتشف أن الزوجين الشابين المنتقلين حديثاً إلى هذه

المنطقة يمارسان الجنس مرتين أو ثلاث مرات أحياناً في اليوم، وهو لا يترك البلكونة. إنه يحمل عكازاً. والطبيب أشار عليه بضرورة المشي. بات المرء يراه يمشي على البلكونة بدل أن ينزل للمشي على الكورنيش، إذ لا يريد تفويت لحظة واحدة من مشهد السكس الأهمّ بالنسبة إليه. لكن البلكونة ضيقة، وتقديره للمسافة التي يجب أن يقطعها على الكورنيش لم يكن دقيقاً. بعد أسبوعين، دهمه تعب في رجليه. تعب زائد. فأجروا له عملية. لم تنجح. ولم يعد قادراً على المشي من دون الاستعانة بالووكر. لم يعد يحمل عكازاً. وصار أكثر بطئاً.

منذ أسبوعين أو ثلاثة، شبَّ حريق في بيته الكبير الذي يقيم فيه وحده، فأتى على كل عفشه وأمواله. وبالكاد استطاع الرجل الصغير الإفلات. نجا بحياته وشكر ربه. ثم أوفد إلى إخوته الذين سارعوا بإرسال الأموال له. منذ شبّ الحريق لم يعد يظهر في البلكونة. وسمعت أنّه يتهمني بأنني دعوت عليه، وأنّ الحريق برمته هو انتقام من تلصصه علينا وتصميمه على إلحاق الفضيحة بنا أنا وزوجتي.

في الواقع، قلقت بشأنه. وزوجتي كذلك. صرنا ونحن نمارس الجنس نفتح البردايةَ السميكة قليلاً، التي لم يعد الهواء قادراً على تحريكها، لنرى إذا ما كان القزم موجوداً على البلكونة أو لا. لا أعرف إذا ما تعودنا على صوته أو إذا ما صار صوته محفزاً للسكس بيننا. لكنّ سيرة القزم صارت تأتي في الفراش. وبدل أن نتبادل الغزل أنا وهي، صرنا نتساءل ما الذي ممكن أن يكون قد حلَّ بشأنه. ومع الوقت، لم نعد قادرَين على ممارسة الجنس.

زوجتي أصرت على أن نقوم له بزيارة. وبالفعل. طرقنا باب بيته. تفاجأ

حين رآنا وأدخلنا إلى بيته الذي كانت لا تزال آثار الحروق ماثلة على جدرانه. ثم قدّم لنا العصير وأخذ يعتذر ويبكي ويقول: «سامحاني. انظرا ما فعل الله بي». ونحن نقول له إننا لسنا غاضبَين منه. لكنه لم يقتنع. إلى أن همست في أذنه ونحن خارجان من بيته: «هل تريدني أن أريك الدليل على أننا لسنا غاضبين منك؟». لمعت عيناه. وهزّ برأسه قائلاً: «كما تريد. لكن على مسؤوليتك. أنا لست مسؤولاً». وأنا ابتسمت.

في اليوم التالي، انتظرنا حتى خرج إلى البلكونة. وبدأنا بممارسة الجنس. كنا قد أعدنا البردايا القديمة، الخفيفة الوزن إلى الغرفة. وبالفعل، ما إن هبّت أول نسمة هواء، حتى سمعنا القزم يصرخ: «هناك شخص ينيك في الطابق السابع. ينيك من أجلي فقط. لا تخرجوا إلى البلاكين يا أولاد القحبة».

خوان وآوسا

لو لم التقِ بخوان لأمضيتُ عمري ناقصاً أحلى تجاربي. كان متزوجاً من آوسا. وهكذا تعارفا: كانت آوسا في ذلك الوقت تقيم في بلدة في إسبانيا. في شقة صغيرة في الطابق الأرضي من شارع اسمه بابلو ديلوسّو. كان شبّاكها الوحيد يطل مباشرة على الشارع. والشارع ضيق. آوسا لم تكن تعرف أنهم يقيمون موسمياً احتفالاً بمصارعة الثيران. من تلك الاحتفالات التي يُستفز فيها الثور فيقوم بنطح كلّ من يراه أمامه. خوان كان أحد الشبان الذين تحمسوا للمشاركة في الحفل. أنتَ لا تدفع رسوماً لتركض أمام ثور في الشارع. كل ما عليك فعله أن تقف بمواجهته وتحاول جاهداً تجنبه حين يهمّ بتسديد ضربة على صدرك بقرنيه.

خوان لم يكن متمرساً، إذ لم يشارك قبلاً في سباقات كهذه. في ذلك الصباح

كان خوان قد مارس الجنس مع ابنة جيرانه التي هي في السادسة عشرة. ولم يغسل يديه، فبقيت رائحة فرجها عالقة على أصابعه. أمضى خوان فترة الصباح ماشياً في الشارع المكتظ واضعاً يده على وجهه منشغلاً بشمّ أصابعه. كانت تلك أول مرة أيضاً يمارس فيها الجنس. يقول لي: «في ذلك اليوم حققتُ ثلاثة أهداف دفعة واحدة». فقد تعرف إلى آوسا، وكانت أول مرة يمارس فيها الجنس مع قاصر، وأول مرة يراوغ فيها ثوراً في شارع بابلو ديلوسّو. ما حدث هو أنّ الثور انتقاه دون الجميع. لا بسبب فحولته، بل بسبب رائحة الفرج المتجمّعة تحت أظافره. ولّى خوان الأدبار في الشارع، كما يجب. كان متحمساً، لكن مرعوباً كذلك. لم تكن تلك المسابقة كالمسابقات السابقة، إذ يتعيّنَ على من يطارده الثور أن يلفّ تلزيق «شرتيتون» على قرني الثور. وإذا لم يتمكن يخسر وتكون فضيحة تتعلق برجولته.

المنظّمون كانوا قد وزعوا لفائف شريط «شرتيتون» على الناس، طالبين منهم أن يلقوا باللفافات إلى الرجل الذي يختاره الثور. وهذا الرجل (خوان في هذه الحالة) يتحتّم عليه أن يلتقط واحدة من تلك اللفافات ويقوم بفضّ الشريط ولفّه على قرنَي الثور، ما يعني أنّ عليه التوقف عن الركض من وقت لآخر، ليواجه الثور.

ما حدث هو أنّ رائحة الفرج أثارت غضب الثور، ولم يترك مجالاً لخوان حتى ليلتقط أنفاسه. أخذ خوان يركض بأقصى سرعته، قابضاً على الشريط اللاصق بيده بحركة عصبية. حتى أن الناس تعاطفوا معه، لأنّ الحيوان المسعور الذي يزن حوالى ٧٠٠ كلغ لم يترك له مجالاً لالتقاط أنفاسه. قفز عن حافة صغيرة، وصعد فوق مزبلة، وركض بمحاذاة حائط، لكنّ الثور

لم يدعه وشأنه. فلم يكن أمام خوان إلّا أن يرمي نفسه من فتحة شباك آوسا التي كانت تتفرج على الاحتفالية. فأل خير طبعاً أن يدخل رجل وسيم من شبّاكك، إلا أنك ستصاب بالهلع حين ترى ثوراً يتبعه. حكتْ لي آوسا أنها أدخلت نفسها في الخزانة الصغيرة تحت المجلى، تاركة خوان والثور يتصارعان داخل الشقة. تحطمت الخزانة وانكسر السرير ووقعت الثريا التي نطحها الثور بقرنيه، على الأرض وتهشمت، كعدة فخّاريات ثمينة كانت آوسا جمعتها من نواحٍ عدة في إسبانيا. فاستشاطتْ غضباً. خرجتْ من مخبئها إلى المطبخ ممسكة بإحدى السكاكين الكبيرة. ثم اتجهت فوراً إلى الثور، رأساً لرأس، وغمست السكين في كتفه بضربة جانبية. وقع الحيوان أرضاً. أما خوان، فانقضّ على الثور الجريح، مستغلاً الفرصة، ولافّاً الشريط اللاصق على قرنيه.

الناس كانوا الآن محتشدين أمام الشباك. إلّا أنّ أحداً منهم لم يرَ ما حدث، ذلك أنّ كل ما ألحقه آوسا وخوان بالثور جرى في ممر الشقة. تطلّب الأمر ثلاثة عشر رجلاً لإخراج الثور. كان قرناه مغطّيَين بالشريط اللاصق والدم يسيل على عنقه ورأسه. واعتبر الناس خوان بطلاً. لكنهم حين حملوا الثور إلى الزريبة للعلاج وفكوا عن قرنيه الشريط اللاصق، اكتشفوا أن هناك رائحة فرج في الشريط اللاصق.

خوان وعد آوسا بأن يُصلح لها كل ما حطمه الثور. وبالفعل أمضى ما يفوق الأسبوعين في إصلاح الخزانة وترميم حوافّ الشباك التي خرَّبتها حوافر الثور. أشغال الشقة كان من المفروض أن تستغرق أقل من أسبوعين، لكن خوان عمل ببطء وكان يتحدث كثيراً. أخبر آوسا بكل شيء عن حياته ما

عدا الفتاة التي مارس معها الجنس صباح اليوم الذي نطَّ فيه من شباكها. كان في الثلاثين. وكانت آوسا في السابعة والعشرين.

اعتبر السكان في شارع بابلو ديلوسّو أنّ الثور، لا بدّ، شقيق الفتاة التي ضاجعها خوان. ففي تلك البلدة يعتقد السكان بالأخوة بين الثيران والناس. ولولا تلك القرابة لما استشاط غضباً بتلك الطريقة. كان عليهم الآن معرفة هوية الفتاة التي هي أخت الثور. وتوعَّدَ الرجالُ بمحاسبة خوان. وهكذا أنزلوا كل الفتيات من البيوت، وطُلِبَ منهنّ المرور قبالة الثور الواقف في حظيرته والمغطى بقماشة كبيرة. كان مطلوباً من الثور اكتشاف الفتاة التي مارس خوان معها الجنس. وبالفعل، ما إن تقدمت الفتاة القاصر من الحيوان حتى دنا منها خاثراً في وجهها. فوعد أبوها بشنق خوان تحت أنظار الثور في الحظيرة. كان على خوان إيجاد حل. أنكر القصة برمتها أمام آوسا وبكى وطلب منها مساعدته. أمضيا ليلة يفكران في حلّ. ثم وجداه أخيراً. أن يتزوج خوان بالفتاة القاصر وتتزوج آوسا بالثور. صورياً طبعاً. فذلك أفضل الحلول. حيث إن سكان شارع بابلو ديلوسّو طلبوا من الفتاة ألّا تفارق الثور أخاها، وأن تعتني به كتعويض عمّا ألحقته به من عار. وهكذا كان. وبعد فترة وجيزة، ركب خوان وآوسا والفتاة القاصر والثور في شاحنة صغيرة، راحلين عن الحي.

في الطريق، أخذ الثور يخور ويصرخ، ذلك أن رجرجات الشاحنة راحت تعمل ألماً في كتفه التي لم يكن الجرح فيها قد التأم بعد، ما استفز السائق الذي أنزلهم جميعاً. بعد انتظار لبعض الوقت على الأوتوستراد، تفاوض خوان مع سيارة أوتوستوب. استقل وآوسا السيارة طالبَين من الفتاة البقاء

برفقة أخيها الثور ريثما يعود خوان بشاحنة صغيرة. لكن خوان وآوسا تركا الفتاة القاصر وأخاها الثور وهربا. ومن يومها لا يعرفان أيّ شيء عنهما. تزوجا وانتقلا للإقامة والعمل قريباً مني، كناشطين سياسيين.

لكنّ صداقتي مع خوان لم تبدأ إلا عندما رآني أنطح بقرنيَّ لوحاً مدرسياً مرمياً على مزبلة. كنت بمفردي، زهقاناً، وكان كل هدفي أن أتسلى وأن أستعرض قوتي أمام بعض القطط والمزارعين العاطلين من العمل. كان ذلك بُعيد الحرب الأخيرة. وكنتُ قد توقفت عن الذهاب إلى الحقل، لأن سيدي المزارع مات بعد أن ذوَّبت شظية كبيرة من قذيفة، كبدَه.

المهم أنني لم أعد إلى جَرّ الساقية إطلاقاً، ذلك أن خوان اشتراني من أبناء المزارع ووضعني عنده في حديقة بيته الكبير. وأنا، دون الثيران جميعاً، لا حبل في رقبتي. موجود دوماً في حديقة البيت، ولا أفعل شيئاً سوى الإنصات إلى قصصه هو وآوسا وتحمّل مضايقات الأطفال الذين تأمرهم آوسا بإطعامي الجوَّافة من وراء السياج وهي تحمّمني بالماء والصابون. برأيي، فإن خوان وآوسا معتوهان. فخوان كلما رآني مستلقياً يُقرِّبُ مني ليسألني هامساً: «كيف حال أختك؟» فأهزّ برأسي بضع مرات، الأمر الذي يفسره هو كالتالي: «إنها بخير، في طريقها مع أبيها إلى هنا». بينما ترتعد فرائص آوسا، فيتشاجران، وأسمعهما يتباحثان كالعادة في مسألة إعدامي قريباً، لكنهما لا يجرؤان على ذلك طبعاً، كوني ثور. أما أنا، ولأنني لا يمكنني المشاركة في الحديث أزهق، فأقضم بعض الفواكه الموضوعة إلى جانبي وأنام. ولا أصحو إلّا عندما يحلو لي. وأفكر، فعلاً لو لم ألتق بخوان المتزوج آوسا لأمضيتُ عمري ناقصاً أحلى تجاربي.

المؤلف

شاعر وصحافي فلسطيني

مواليد بيروت ١٩٧٨.

- حائز بكالوريوس في الكيمياء من الجامعة اللبنانية.
- كتب في النقد الأدبي والمسرحي والبحث للعديد من الصحف والمجلات في العالم العربي والأوروبي.
- ترجم إلى العربية أربع روايات ومختارات شعرية وقصصية لشعراء وكتاب من العالم.

مؤلفاته:

- **الكاميرا لا تلتقط العصافير**، ط ١، دار الأنوار، ٢٠٠٤، ط ٢، دار الجمل ٢٠١١.
- **كأن حزننا خبز، دار الفارابي ٢٠٠٠.**
- **ملاك على حبل غسيل ٢٠١٢**، الكوكب - رياض الريس للكتب والنشر، وترجم إلى الفرنسية ونشر عن دار «لامنديه»، باريس ٢٠١٣.
- ترجمت بعض قصائده إلى الفرنسية والإنكليزية والسويدية والألمانية والصينية والأوردو والملاوية.

مازن معروف

نُكات للمسلّحين

قصص

حلمتُ بأنّ لأبي عيناً زجاجية. وعندما أفقت، كان قلبي يخفق بشدة، كما لو أنّه قلب بقرة مذعورة، لكنني كنت أبتسم. كنت سعيداً، كما لو أنّ الأمر أخيراً تحقّقَ وأصبح لأبي عين زجاجية. عندما كنتُ صغيراً، أهداني أبي في عيد ميلادي شتلة فلفل. كانت هدية غريبة. لم أفهم كنهها في ذلك الوقت. كنّا نسمع إطلاق رصاص بين الفينة والأخرى. لكننا اعتدناهُ كما لو أنه زمامير سيارات عابرة. وبقدر ما لم أفهم ما الذي كان يحدث في الجوار، لم أفهم اختيار أبي لشتلة الفلفل ثم بقاءها معنا. لكن كان فيها برعمان صغيران من الفلفل. وحدستُ أنها تعبير عني وعن أخي التوأم.

الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS